

الفصل الثالث عصمة الأنبياء

- ١ - تعريف العصمة ومعناها اللغوي والشرعي .
- ٢ - هل العصمة قبل النبوة أو بعدها ؟
- ٣ - شبهات حول عصمة الأنبياء والرد عليها .
- ٤ - عصمة آدم أبي الأنبياء عليه السلام .
- ٥ - عصمة إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام .
- ٦ - عصمة يوسف الصديق عليه السلام .
- ٧ - عصمة نوح عليه السلام .
- ٨ - عصمة يونس عليه السلام .
- ٩ - عصمة خاتم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم .
- ١٠ - الآيات التي ورد فيها العتاب .

obeikandi.com

عِصْمَةُ الرُّسُلِ وَالنَّبِيِّاءِ

من المزايا التي امتاز بها الأنبياء على بقية البشر، بعدهم عن اقتراف المعاصي وعزوفهم عن الشهوات واجتنابهم لكل ما يخل بالمروءة، أو يهدر الكرامة، أو يحط من قدر الإنسان. فهم صلوات الله وسلامه عليهم أكمل الناس خلقاً وأزكاهم عملاً، وأطهرهم نفساً، وأعطرهم سيرة، لأنهم «القدوة» للبشر وهم الأسوة الحسنة للإنسانية، ولذلك أمر الله عز وجل بالاعتداء بهم، والتخلق بأخلاقهم، والسير على منهاجهم في جميع شؤون الحياة، قال تعالى:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ آفْتِدَةٌ...﴾ (١).

وقال تعالى:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ...﴾ (٢).

وقال تقدست أسماءه:

﴿وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفِينَ الْآخِيَارِ﴾ (٣).

* * *

(١) سورة الأنعام: الآية (٩٠).

(٢) سورة ص: الآية (٤٧).

(٣) سورة الأحزاب: الآية (٢١).

تعريف العصمة ومعناها اللغوي والشرعي

- ١ -

العصمة في اللغة معناها: المنع، يقال: عصمته عن الطعام، أي: منعه عن تناوله، وعصمته عن الكذب، أي: منعه منه، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ سَأُوَيِّدُ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾^(١) الآية، أي: يمنعني من الغرق. وقوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ زَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾^(٢) أي امتنع امتناعاً شديداً. وجاء في الحديث الشريف قوله ﷺ:

«أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله . . فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله»^(٣). أي منعوا مني دماءهم وأموالهم.

قال القرطبي: وسميت العصمة عصمة لأنها تمنع من ارتكاب المعصية. ومن الخطأ الفاحش ما يقوله البعض: العصمة لله وحده، أو العصمة لله ولرسله، فإنَّ العصمة إنما تكون من الجرائم والذنوب، فلا تصحُّ نسبتها إلى الله جلَّ وعلا.

(٢) سورة يوسف: الآية (٣٢).

(١) سورة هود: الآية (٤٣).

(٣) الحديث رواه الشيخان عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وانظر البخاري ٧٠/١، كتاب الإيمان؛ ومسلم برقم ٢٢ من كتاب الإيمان أيضاً.

وأما في الشرع: فالعصمة هي: حفظ الله لأنبيائه ورسله عن الوقوع في الذنوب والمعاصي وارتكاب المنكرات والمحرمات.. فالعصمة ثابتة للأنبياء وهي من صفاتهم التي أكرمهم الله تعالى بها، وميزهم على سائر البشر، فلم تكن لأحد إلا للأنبياء الكرام حيث وهبهم الله هذه النعمة العظيمة، وحفظهم من ارتكاب المعاصي والذنوب، صغيرها وكبيرها.. فلا يمكن أن تقع منهم معصية أو مخالفة لأوامر الله عز وجل بخلاف سائر البشر.

والحكمة من ذلك: أن الله عز وجل: أمر باتباعهم والافتداء بهم، والسير على نهجهم، فهم «القدوة الحسنة» والأسوة الصالحة للخلق. والنموذج الكامل للبشرية جمعاء، فلوجاز وقوعهم في المعصية، أو ارتكابهم للموبقات والآثام، لأصبحت المعصية مشروعة، أو أصبحت طاعتهم علينا غير واجبة، وهذا غير سليم، بل هو أمر مستحيل، فالأنبياء هم القادة، وكيف يصح أن يأمر القائد بالفضيلة، وينهى عن الرذيلة، ثم يرتكب هو أنواع الفواحش والمنكرات؟! ثم إن المعاصي والذنوب ما هي إلا «نجاسات معنوية». وهي تشبه القاذورات والنجاسات الحسية، فكيف يجوز نسبتها إلى الأنبياء والرسول الكرام؟

وقد جاء في الحديث الشريف ما يشير إلى أن المعصية نجاسة باطنة وذلك في قوله ﷺ:

«من ابتلي منكم بشيء من هذه القاذورات فليستتر، فإنه من يُبَدِّ لناصفحته نُقم عليه كتاب الله» أو كما ورد والمعنى: من يظهر المعصية ويعلمها فلا بد من إقامة الحد عليه.

فالعقل والشرع يُلزمان القول (بعصمة النبي) إذ: كيف يجوز أن يكون نبياً ويكون سارقاً، أو قاطع طريق، أو شارب خمر، أو زانياً أو غير ذلك من القاذورات والنجاسات التي تمنع من الاقتداء به، أو من أتباعه!؟.

وهل يكون لكلام النبي أثر في النفوس إذا كانت سيرته غير عطرة، أو كانت حياته ملوثة ببعض الموبقات والآثام!؟.

إذا فلا بد من أن تكون حياة (النبي) حياة كريمة فاضلة، مشرقة بنور الهداية، معروفة بالعفة والطهارة، زاخرة بالفضل والنبيل والصلاح، وهذا ما يسمى بـ (عصمة الأنبياء)!

جاء في كتاب «العقيدة الإسلامية»^(١) في باب صفة العصمة ما نصّه :
«وحيث ثبت أن الرسول هو «المثل الأعلى» في أمته، الذي يجب الاقتداء به في اعتقاداته، وأفعاله، وأقواله، وأخلاقه، إذ هو الأسوة الحسنة بشهادة الله له – إلا ما كان من خصائصه بالنص – وجب أن تكون كل اعتقاداته، وأفعاله، وأقواله، وأخلاقه الاختيارية بعد الرسالة موافقة لطاعة الله تعالى، ووجب أن لا يدخل في شيء من اعتقاداته، وأفعاله، وأقواله، وأخلاقه، معصية الله تعالى، لأن الله تعالى أمر الأمم بالاقتداء برسولهم، فإذا أمكن أن يفعل الرسل بعد الرسالة المعاصي كان معنى الأمر باتخاذهم أسوة – في حال المعصية وحدثها منهم – أمراً بالمعصية، وفي هذا تناقض ظاهر».

عصمة الله لرسوله منذ الطفولة :

وقد حفظ الله تعالى نبينا ﷺ منذ طفولته، وعصمه من أفعال الجاهلية في صغره وشبابه، إلى أن جاءت النبوة فأكملت عليه النعمة وتمت له «العصمة» بتشريفه بتحمل أعباء الرسالة على الوجه الأتم الأكمل.

قال (ابن هشام) في السيرة النبوية :

(فشبَّ رسول الله ﷺ والله تعالى يكلؤه ويحفظه ويحوطه من أقدار الجاهلية لما يريد به من كرامته ورسالته، حتى بلغ أن كان رجلاً، وأفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقاً، وأكرمهم حسباً، وأحسنهم جواراً، وأعظمهم حلماء، وأصدقهم

(١) هو كتاب لأخينا الفاضل الأستاذ (عبد الرحمن حنكة) الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة أم القرى، وهو من الكتب النفيسة في العقيدة الإسلامية وفقه الله .

حديثاً، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال تنزهاً وتكراً، حتى ما كان اسمه في قومه إلا الأمين، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة.

وكان رسول الله ﷺ - فيما ذكر لي - يحدث عما كان الله يحفظه به في صغره، وأمر جاهليته، أنه قال:

«لقد رأيتني في غلمان من قريش، ننقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان، كلنا قد تعرى، وأخذ إزاره فجعله على رقبته، يحمل عليه الحجارة، فإني لأقبل معهم كذلك وأدبر، إذ لكمني لاكم لكمة وجيعة ثم قال: شد عليك إزارك، قال: فأخذته وشدته علي، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي وإزاري علي من بين أصحابي»^(١).

قال (السهيلي) في التعليق على هذه القصة: وهذه القصة إنما وردت في الحديث الشريف في حين بنیان الكعبة، وكان رسول الله ﷺ ينقل الحجارة مع قومه إليها، وكانوا يحملون أزهرهم على عواتقهم لتقيهم الحجارة، وكان رسول الله ﷺ يحملها على عاتقه وإزاره مشدود عليه، فقال له العباس رضي الله عنه: يا ابن أخي، لو جعلت إزارك على عاتقك ففعل فسقط مغشياً عليه، ثم قال: إزاري، إزاري، فشد عليه إزاره وقام يحمل الحجارة. وحديث ابن إسحق - إن صح - أنه كان في صغره، فمحملة على أن هذا الأمر كان مرتين، مرة في صغره، ومرة في شبابه.

* * *

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/١٩٤.

هل العصمة قبل النبوة أو بعدها؟

- ٢ -

وقد اختلف العلماء في (عصمة الأنبياء) هل هي قبل النبوة أم بعدها؟ وهل تكون العصمة عن الكبائر فقط أم عن الكبائر والصغائر من الذنوب؟.

فذهب بعضهم إلى أن العصمة ثابتة لهم قبل النبوة وبعدها، وذلك لأن السلوك الشخصي - ولو قبل النبوة - يؤثر على مستقبل الدعوة للنبي، فلا بد إلا وأن يكون إذاً من ذوي السيرة العطرة، والصفاء النفسي، حتى لا يكون ثمة مطعن في رسالته ودعوته.

واستدلوا على ذلك بأن الله تبارك وتعالى قد اختار أنبياءه من صفوة البشر، ورعاهم منذ الصغر على عينه كما قال لموسى عليه السلام:

﴿وَلِنُصَنِّعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾^(١).

وجعلهم من المصطفين الأخيار:

﴿وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفِينَ الْأَخْيَارِ﴾^(٢).

فلا بد إذاً أن يكونوا معصومين ومحفوظين قبل النبوة وبعدها.

(١) سورة طه: الآية (٣٩).

(٢) سورة ص: الآية (٤٧).

وأما الفريق الآخر: فقد ذهبوا إلى أن (عصمة الأنبياء) إنما تكون بعد النبوة، وتكون من الصغائر والكبائر معاً، لأن البشر ليسوا مأمورين باتباعهم قبل النبوة، فالاتباع والافتداء إنما يكون بعد نزول الوحي عليهم وبعد تشریفهم بحمل الرسالة والأمانة، وأما قبلها فإنما هم كسائر البشر، ومع ذلك فإن سيرتهم تأبى عليهم الوقوع في المعاصي والآثام، أو الانجراف في طريق الفاحشة والرذيلة فإنهم ولو كانوا قبل النبوة غير معصومين، لكنهم محفوظون بالعناية والفترة.

جاء في كتاب (العقيدة الإسلامية وأسسها) ما نصه: (إن النبي قبل اصطفاؤه بالنبوة على وجهين:

١ - فهو إما أن يكون لم يكلف بعدُ مطلقاً بشرع ما، فالعصمة في حقه غير ذات موضوع، لأن المعاصي والمخالفات بعد ورود الشرع والتكليف به، والمفروض أنه لم يكلف، فلا مجال لبحث العصمة أو عدمها، لأن الذمة خالية من التكليف.

لكن علو فترة الرسول، وصفاء نفسه، وسمو روحه، وصحة عقله تقتضي أن يكون أنموذجاً رفيعاً بين قومه: في أخلاقه، ومعاملاته، وأمانته، وفي بعده عن ارتكاب القبائح التي تنفر منها العقول السليمة والطباع المستقيمة.

٢ - وإما أن يكون قد كُلف بشرع رسول سابق، كسيدنا لوط عليه السلام حينما كان تابعاً - قبل نبوته - لعمه إبراهيم عليه السلام، وكأنبياء بني إسرائيل من بعد موسى قبل أن يوحى إليهم بالنبوة، وهذه الحالة لم يثبت في عصمة النبي فيها دليل قاطع، لا عن الكبائر، ولا عن الصغائر، لكن سيرة الأنبياء التي أثرت عنهم قبل نبواتهم تشهد بأنهم من أبعده الناس عن المعاصي كبائرهم وصغائرهم.

ولئن وقع منهم شيء من ذلك فهفوات نادرة، لا تطعن فيهم لعلو فطرتهم وصفاء نفوسهم، وسمو أرواحهم والمهمة التي سيكلفون بها فيما بعد، وإنما تقع منهم هذه الهفوات إثباتاً لبشريتهم أمام الخلائق، لئلا يرفعوهم فوق المستوى

البشري، ويحملوهم من صفات الألوهية ما لا يمكن أن يتصفوا به، فهم عبيد مخلوقون لله تعالى، وليظهر الفرق بين أحوالهم قبل النبوة وأحوالهم بعدها^(١).

والصحيح الذي عليه المعول من أقوال العلماء هو: أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصومون عن المعاصي (الصغائر والكبائر) بعد النبوة باتفاق، وأما قبل النبوة فيحتمل أن تقع مهم بعض المخالفات اليسيرة التي لا تخل بالمروءة ولا تقدح بالكرامة والشرف.

قال العلامة (القرطبي) رحمه الله في تفسيره الجامع لأحكام القرآن:

«واختلف العلماء هل وقع من الأنبياء - صلوات الله عليهم أجمعين - صغائر من الذنوب، بعد اتفاقهم على أنهم معصومون من الكبائر، ومن كل رذيلة فيها شين ونقص إجمالاً، فقال جمهور الفقهاء: إنهم معصومون من الصغائر كلها كعصمتهم من الكبائر أجمعها، لأننا أمرنا باتباعهم، في أفعالهم وآثارهم وسيرهم، أمراً مطلقاً من غير التزام قرينة، فلو جوّزنا عليهم الصغائر لم يمكن الاقتداء بهم، إذ ليس كل فعل من أفعالهم يتميز مقصده من القربة والإباحة، أو الحظر، والمعصية... ولا يصح أن يؤمر المرء بامثال أمر لعله معصية.

وقال (أبو إسحق الأسفرايني) من علماء أهل السنة: لا يقع من الأنبياء ذنوب، لأنهم معصومون من الكبائر والصغائر. وذلك مقتضى دليل المعجزة، وقال بعضهم بوقوع الصغائر منهم، ولا أصل لهذه المقالة، والذي عليه الأكثر أن ذلك غير جائز عليهم.

وقال بعض المتأخرين:

الذي ينبغي أن يقال: إن الله تعالى قد أخبر بوقوع ذنوب من بعضهم، ونسبها إليهم، وعاتبهم عليها، وأخبروا بها عن نفوسهم، وتنصلوا منها، وأشفقوا منها

(١) العقيدة الإسلامية للأستاذ حنكة ص ١١٦.

وتابوا، وكل ذلك ورد في مواضع كثيرة لا يقبل التأويل جملتها، وإن قبل ذلك آحادها، وكل ذلك مما لا يزري بمناصبهم، وإنما وقعت على جهة الخطأ والنسيان فهي بالنسبة إلى غيرهم (حسنات) وفي حقهم (سيئات) ولقد أحسن الجنيد حيث قال: (حسنات الأبرار سيئات المقربين) إذ قد يُؤاخذ الوزير، بما يثاب عليه الأجير، قال القرطبي: وهذا هو الحق، فهم صلوات الله وسلامه عليهم، وإن كان قد شهدت النصوص بوقوع ذنوب منهم، فلم يُجَلَّ ذلك بمناصبهم ولا قدح في رُتبهم، بل تلافاهم واجتباهم، وهداهم وزكَّاهم، واختارهم واصطفاهم^(١) صلوات الله عليهم وسلامه».

هل تكون العصمة لغير الأنبياء؟

والعصمة لم تثبت لغير الأنبياء الكرام صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، إذ كل فرد من البشر معرض للخطأ والانحراف، والوقوع في المعصية، إلا أن الله عز وجل حفظ بعض أوليائه، من الكبائر، وصانهم عن الرذائل، عن طريق «الحفظ» والتأييد، وهذا من اللطف الإلهي، لا من «العصمة» التي خص الله بها رسله وأنبياؤه.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمَنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ^(٢) مِنْ رَحْمَتِهِ، وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

فالنور الذي أشارت إليه الآية الكريمة هو المراد باللطف الإلهي، الذي يكون للأولياء والأتقياء، أو للصديقين من الرجال، وهو من الحفظ والتأييد، لا من العصمة.

(١) انظر: جامع الأحكام للقرطبي ١/٣٠٨.

(٢) «كفلين» الكِفْلُ: الحِطُّ والنصيب، والمراد يؤتكم مثلين وضعفين من الأجر، والآية من سورة الحديد رقم (٢٨).

وقد كان من الصحابة الكرام من خصه الله بذلك الفضل الإلهي أمثال (أبي بكر) و (عمر) رضي الله عنهما، وقد أخبر عليه الصلاة والسلام بأن الله قد جعل الحق على لسان عمر وقلبه، وقال لعمر: «والذي نفسي بيده ما رآك الشيطان سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فحك يا عمر»^(١).

ودعوى بعض المخالفين بعصمة بعض الأشخاص لا صحة لها، ولا برهان من كتاب أو سنة، وإنما هي مجرد أوهام وأحلام، فما كانت «العصمة» لأحد إلا للأنبياء، لأن الله جعلهم قدوة للعالمين^(٢) كما قال تعالى:

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ﴾^(٣).

وكل إنسان - عدا الأنبياء الكرام - معرض للخطأ ولهذا قال الإمام مالك رحمه الله تعالى:

(ما منا إلا من ردَّ وردُّ عليه، إلا صاحبُ هذا القبر) يعني بذلك النبي ﷺ بسبب العصمة.

عقيدة أهل الكتاب في الأنبياء:

وإلى جانب هذه الصورة المشرقة، صورة الكمال الإنساني للأنبياء الكرام (الأسوة، والقدوة، والإمامة، والهداية للبشرية) التي يضيفها عليهم القرآن الكريم، وينعتهم بها، نجد عقيدة أهل الكتاب (اليهود والنصارى) تتجاوز الحد من النيل من

(١) هذا طرف من حديث رواه البخاري ٣٧/٧ في فضائل الصحابة؛ ورواه مسلم برقم ٢٣٩٦ في فضائل عمر، وانظر تمام الحديث في جامع الأصول ٦٢٠/٨.

(٢) انظر: رسالة «الخطوط العريضة لمذهب الشيعة الإثني عشرية» لمؤلفها الفاضل الشيخ محب الدين الخطيب فإنها نفيسة.

(٣) سورة الأنبياء: آية (٧٣).

كرامة الأنبياء الأطهار، فلا يكتفون بنسبة المعصية إليهم، وعدم الاعتقاد بعصمتهم، بل يجعلون منهم (أبطالاً) للجريمة و (قادة) للفجور والدعارة وارتكاب أعظم الآثام .

تجد في التوراة - المحرّفة طبعاً - الشيء الكثير من هذه المخازي، منها أن أحد الأنبياء وهو (لوط عليه السلام) شرب الخمر ثم نام مع ابنتيه (وطأهما بعد أن سكر) فحملتا منه عن طريق الزنى، استغفر الله!! أي جريمة أقبح من هذه الجريمة النكراء، أن يرتكب النبي جريمة الزنى مع ابنتيه، بعد معاورة الخمرة، يا لشناعة الأمر، وفضاعة الاتهام!! .

ونحن نقل النص الذي ورد في التوراة، ليتبين للقارىء عقيدة اليهود في الأنبياء، ومدى الافتراء والبهتان الذي ألصقه اليهود بهم، مما نقطع ونجزم بأنها أخبار كاذبة على الأنبياء الكرام، وأنها من التحريف لكتاب الله . جاء في سفر التكوين صفحة (١٢٨) ما نصه :

«فصعد لوط وسكن الجبال وابنتاه معه، وخاف أن يسكن صاغر، وأوى إلى كهف هو وابنتاه . . . فقالت الكبرى منهما للصغرى: إن أبانا قد شاخ، وليس رجل على الأرض يستطيع أن يدخل علينا، فهلمي نسقيه خمرأ، ونضطجع معه، ونقيم من أبينا خلفاً، فسقتا أباهما خمرأ في تلك الليلة ودخلت الكبرى فاضطجعت مع أبيها وهو لا يعلم عن انضجاع ابنته ولا نهوضها . . . ولما كان الغد قالت الكبرى للصغرى: هوذا قد اضطجعت البارحة مع أبي فلنسقه خمرأ في ليلتنا هذه أيضاً، وادخلي فاضطجعي معه فنقيم نسلأ من أبينا، فسقتا أباهما خمرأ في تلك الليلة أيضاً، ودخلت الصغرى فاضطجعت مع أبيها، ولم يعلم عن اضطجاعها، فحملت ابنتا لوط من أبيهما، وولدت الكبرى ابناً ودعت اسمه (مواب) وهو أبو الموابين إلى يومنا هذا، وولدت الصغرى أيضاً ودعت اسمه (عمان) فهو أبو العمانيين إلى اليوم» . ا هـ . نعوذ بالله من الزيغ والضلال، والافتراء والبهتان .

ونجد في الباب الثامن والثلاثين من سفر التكوين ص ١٢٨ أن (يهوذا بن

يعقوب) زنا بزوجة ابنه، وحملت بالزنى منه وولدت توأمين (فارض، وزارج) وأن داود وسليمان وعيسى كلهم من أولاد فارض كما هو مصرح به في الباب الأول (من إنجيل متى).

وأن (داود) عليه السلام زنا بامرأة (أوريا) قائد جيشه وحملت بالزنى فأهلك زوجها بالمكر وأخذها زوجة له، كما هو مصرح به في الباب الحادي عشر من سفر (صموئيل).

وهناك ما هو أدهى وأمر.. فإن اليهود يزعمون أن (سليمان) عليه السلام ارتد في آخر عمره، وكان يعبد الأصنام بعد الارتداد، وبني المعابد لها كما هو في الباب الحادي عشر من سفر الملوك الأول.

ويا ليت شعري ماذا يبقى من حرمة الأنبياء، وكيف يمكن الاقتداء بهم، إذا كان هذا هو تاريخهم.. (سكر، وعريضة، واقتراف للجرائم الشنيعة كالزنى، وسفك الدماء، وعبادة الأوثان)؟؟

هذه بعض عقائد اليهود في أنبيائهم، وكلها كذب وزور وبهتان، ونحن نقطع ونجزم بأنها كلها وأمثالها باطلة، وأنها من تحريف اليهود، لا من التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام.

وأما (النصارى) فإنهم لا يعتقدون بعصمة الأنبياء وذلك بناء على عقيدتهم بالوهية السيد (المسيح) عليه السلام فهو وحده المعصوم، وكل البشر - بما فيهم الأنبياء - يخطئون، وليس هناك شفيع ولا مخلص سوى (المسيح) لأن المخطيء لا يخلص المخطئين، على حد تعبير الإنجيل..

وعند النصارى صور مخزية لا تقل شناعة عن عقيدة اليهود في الأنبياء وكلها ترميهم باقتراف الآثام وارتكاب الجرائم مما لا يقبله عقل ولا نقل.

يقول المرحوم محمد رشيد رضا في كتابه (الوحي المحمدي) ما نصه: (إذا كان إرسال الأنبياء إلى البشر، لأجل هدايتهم إلى تزكية أنفسهم، بما تصلح به أحوالهم في دنياهم، ويستعدون به لحياة أعلى من هذه الحياة الدنيا في نشأة

أخرى، فلا يتم هذا الغرض ولا تتحقق هذه الحكمة إلا إذا كان هؤلاء الأنبياء أهلاً لأن يُقتدى بهم في أعمالهم وسيرتهم، والتزام الشرائع والآداب التي يبلغونها عن ربهم، ومن ثم قال علماؤنا بوجوب (عصمة الأنبياء) من المعاصي والردائل وبالغ بعضهم فيها حتى قالوا بعصمتهم من الذنوب الصغائر والكبائر. قبل النبوة وبعدها، وخص بعضهم العصمة من الصغائر بما كان باعته الخسة والدناءة.

وأهل الكتاب لا يقولون بهذه العصمة، وكتبهم المقدسة ترمي بعض كبار الأنبياء بكبائر الفواحش المنافية لحسن الأسوة، بل المجرّئة على الشرور والمفاسد. والنصارى منهم يجعلون معاصي الأنبياء دليلاً على عقيدتهم، وهي أن المسيح هو المعصوم وحده لأنه رب وإله، ولأنه هو المخلص للناس من العقاب على الخطيئة اللازمة لكل ذرية آدم بالوراثة له، وأنه لا شفيع ولا مخلص لهم غيره، لأن المخطيء لا يخلص المخطئين وهو منهم، وهذه العقيدة وثنية مخالفة لدين الأنبياء، وكتبهم، وللعقل، ومطابقة للأديان الوثنية الهندية وغيرها.

بيد أن كتب العهدين (القديم والجديد) المقدسة عندهم، المحرّفة في اعتقادنا، لا تشهد لهم برمي جميع الأنبياء بالذنوب، فضلاً عن المعاصي التي هي أشد من الذنوب، فإن (يوحنا المعمدان)^(١) لم يوصم بخطيئة قط، بل شهدت له أناجيلهم، بما يدل على أنه أعظم من المسيح في عصمته ففي إنجيل (لوقا) جاء قوله: (إنه يكون عظيماً أمام الرب، وخمراً ومسكراً لا يشرب، ومن بطن أمه يمتلىء بروح القدس).

وفيه أيضاً يقول: (كانت يد الرب معه).

وقال المسيح فيه: (الحق أقول لكم إنه لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان)^(٢).

(١) هو يحيى بن زكريا عليها الصلاة والسلام.

(٢) إنجيل متى، إصحاح (١١).

بل شهدت الأناجيل أن المسيح عليه السلام أهان أمه وإخوته، ولم يسمح لهم بلقائه، وقد استأذنوا عليه ليكلموه، جاء في إنجيل (لوقا): فأخبروه قائلين: أمك وإخوتك واقفون خارجاً يريدون أن يروك، فأجاب وقال لهم: أمي وإخوتي هم الذين يسمعون كلمة الله ويعملون بها».

يقول السيد رشيد رضا:

نعم إن إخوته لم يكونوا يؤمنون به كما هو مصرح به في موضع آخر، ولكن هل كانت أمه كذلك؟ وهل يجازيها هذا الجزاء؟ والله تعالى يوصي بالإحسان بالوالدين حتى المشركين، ويفضل أم السيد المسيح على نساء العالمين، وإهانة الأم ذنب في جميع الشرائع والآداب.. ونحن نبرئه من كل ذلك^(١).

والخلاصة: إن عقيدة المسلمين في الأنبياء هي العقيدة الحقة الصافية، التي جاء بها القرآن الكريم، وشهد بها واقع حياتهم الطاهرة الشريفة، وهي التي تتناسب مع مقامهم العالي، ومنزلتهم الرفيعة، والقول «بعصمة الأنبياء» والاعتقاد بطهارتهم ونزاهتهم، هو ما يتفق مع النصوص القرآنية المجيدة، في جعلهم أئمة الدنيا والدين، وحملهم لواء الدعوة والهداية للعالمين وفي ذلك يقول الله جل ثناؤه:

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدٌ ﴾^(٢).

ولا بد في القدوة أن يكون كاملاً، ولا بد في النبي أن يكون معصوماً.. هذا ما يقتضيه العقل، ويوجبه الشرع وستعرض في مكان آخر إن شاء الله لدفع بعض الشبهات عن (عصمة الأنبياء) ليظهر الحق، وينشق ضياؤه، والله ولينا ونعم الوكيل.

* * *

(١) الوحي المحمدي ص ٢٨.

(٢) سورة الأنبياء: الآية (٧٣).

شبهات حول عصمة الأنبياء والردُّ عليها

- ٣ -

وقد يقول قائل: كيف يكون الأنبياء «معصومين» مع أن القرآن الكريم قد أثبت لبعضهم بعض المخالفات ونسب إلى البعض الآخر منهم الذنب والمعصية فقال في حق آدم:

﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾^(١).

وقال في حق نوح:

﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾^(٢).

وقال لسيد المرسلين:

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ...﴾^(٣)؟؟.

وللجواب على ذلك نقول:

«إن العصمة للأنبياء ثابتة كما دلت على ذلك النصوص القرآنية الكريمة، وكما قضى بذلك المنطق العلمي السليم. إذ كيف يأمر عز وجل البشر باتباعهم والافتداء بهم، والسير على نهجهم إن لم يكونوا مثلاً للكمال، ونموذجاً للفضل

(١) سورة طه: الآية (١٢١).

(٢) سورة هود: الآية (٤٦).

(٣) سورة الفتح: الآية (٢).

والنبل والطهر!! ولو لم تكن (العصمة) من صفاتهم لما كنا مكلفين باتباعهم في جميع الأعمال والأفعال!

أما ما ورد من بعض النصوص الشرعية، التي يدل ظاهرها على وقوع المعاصي والمخالفات من بعض الأنبياء صلوات الله عليهم، فهي محمولة على بعض الوجوه الآتية:

أولاً: إنها ليست معصية وإنما هي فعل خلاف الأولى.

ثانياً: إنها ليست معصية وإنما هي خطأ في الاجتهاد.

ثالثاً: على فرض أنها مخالفة ومعصية فإنها قد وقعت قبل النبوة.

وإنما قلنا ذلك، لأنه من المستحيل أن يشي الله تبارك وتعالى عليهم ذلك الشئ العاطر، وهم غارقون في أنواع الموبقات والمنكرات، ونسمع فيهم مثل قوله تعالى:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْنِهِمْ آفْتَدُ ۖ قُلْ لَا آسَأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾... ﴿١﴾.

أي تأس بهم يا محمد في سيرتهم العاطرة، وأخلاقهم الزكية، وفي عفتهم، وطهارتهم، ونقائهم!! وأن نقرأ مثل قوله تبارك وتعالى:

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ (٢).

* * *

(١) سورة الأنعام: الآية (٩٠).

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٧٣.

عصية آدم إبي الأنبياء عليه السلام

- ٤ -

معصية آدم عليه السلام، التي صرح القرآن بها في قوله تعالى :

﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لهُمَا سَوْءَ نُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْبَنَهُ رَبُّهُ فَنَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ۝ ﴾^(١).

إنما كانت هذه المخالفة والمعصية قبل النبوة بدليل قوله تعالى :
﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ ۝ ﴾

والاجتباء هو اصطفاء الله له بالرسالة، فتكون المعصية قد وقعت من آدم عليه السلام قبل النبوة.

وهناك قول آخر أن «آدم» عليه السلام إنما أكل من الشجرة ناسياً بدليل قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ عَاهَدْنَا ^(٢) آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴿٣﴾ ۝ ﴾

وقيل : إن آدم عليه السلام لما نهي عن الأكل من الشجرة بقوله تعالى :

(١) سورة طه : الآيتان (١٢١ - ١٢٢).

(٢) يقال : عاهدت إليه بكذا، أي أمرته بكذا والمعنى : أمرنا آدم بعدم الأكل من الشجرة فنسي هذا الأمر ولم نجد له عزمًا على المعصية .

(٣) سورة طه : الآية (١١٥).

﴿ولا تقرباً هذه الشجرة﴾، ظن أن المراد عين هذه الشجرة لا جنسها فأكل من شجرة أخرى من جنسها فخالف الأمر، وكان ذلك باجتهاد منه، لا عن سابق تعمد وإصرار على المخالفة.

وأقرب الأقوال في هذا أن نقول: إن آدم أكل من الشجرة ناسياً، والنسيان يرفع الإثم عن الفاعل كما قال عليه الصلاة والسلام: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» وكما قال تعالى:

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾^(١) . . .

ولم يكن من آدم تعمد أو عزم منه على المعصية بدليل الآية التي ذكرناها ﴿فنسي ولم نجد له عزماً﴾ . . . وذلك ما اختاره بعض المفسرين كالقرطبي وابن العربي: أو نقول: إن المعصية وقعت منه قبل النبوة وذلك ما اختاره صاحب تفسير المنار.

جاء في تفسير المنار الجزء الأول صفحة (٣٨٠) قوله:

(وأما مسألة عصمة آدم، فالجري على طريقه السلف يذهب بنا إلى أن العصيان والتوبة من المتشابه، كسائر ما ورد في القصة، مما لا يركن العقل إلى ظاهره، ولنا أن نقول: إن تلك مخالفة صدرت منه قبل أن يدركه عزم النبوة كما قال جل شأنه: ﴿فنسي ولم نجد له عزماً﴾ . . . والاتفاق إنما هو على العصمة عن مخالفة الأوامر بعد النبوة، وقد يكون الذي وقع من آدم نسياناً، فسمي تفخيماً لأمره عصياناً . . . والنسيان والسهو مما لا ينافي العصمة).

وأما (ابن العربي) رحمه الله فقد رجح الأول، وذهب إلى أن المخالفة وقعت من آدم عليه السلام بسبب النسيان، فقد جاء في كتاب أحكام القرآن ما نصّه:

(١) سورة البقرة: الآية (٢٨٦).

(كم قال في تنزيه الأنبياء من الذي لا يليق بمنزلتهم، مما ينسبه الجهلة إليهم - من وقوعهم في الذنوب عمداً منهم إليها، واقتحاماً لها مع العلم بها، وحاشا لله - فإن الأوساط من المسلمين يتورعون عن ذلك فكيف بالنبين!! ولكن الباري سبحانه وتعالى بحكمه النافذ، وقضائه السابق، أسلم آدم إلى المخالفة، فوقع فيها متعمداً ناسياً، فقبل في تعمده (وعصى آدم ربه) . . وقيل في بيان عذره:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسَىٰ وَلَمْ نُجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾^(١).

ونظيرها: أن يحلف الرجل لا يدخل داراً أبداً، فيدخلها متعمداً ناسياً ليمينه، أو مخطئاً في تأويله، فهو عامد، ناس، ومتعلق العمد غير متعلق النسيان. وجاز للمولى أن يقول في عبده: عصى، تحقيراً وتعدياً، ويعود عليه بفضلته فيقول: نسي، تنزيهاً.

ثم قال رحمه الله:

(ولا يجوز لأحد منا اليوم أن يُخبر بذلك (أي بعضيان آدم) إلا إذا ذكرناه في أثناء قوله تعالى عنه، أو قول نبيه، فأما أن يبتدىء ذلك من قبل نفسه، فليس بجائز لنا في آبائنا الأذنين، المماثلين لنا، فكيف في أبينا الأقدم الأعظم الأكرم، النبي المقدم، الذي عذره الله، وتاب عليه، وغفر له)^(٢)!!

وقال العلامة القرطبي رحمه الله:

(واختلفوا كيف أكل منها مع الوعيد المقترن بالقرب وهو قوله تعالى: ﴿فتكونا من الظالمين﴾ فقال قوم: أكلنا من غير التي أشير إليها، فلم يتأولا النهي واقعاً على جميع جنسها، وقيل: أكلها ناسياً، وهو الصحيح لإخبار الله تعالى في كتابه العزيز بذلك حتماً وجزماً فقال: ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً﴾.

(١) سورة طه: الآية (١١٥).

(٢) انظر: تفسير آيات الأحكام لابن العربي المالكي ١٢٤٩/٣.

ولكن لما كان الأنبياء عليهم السلام يلزمهم من التحفظ والتيقظ، لكثرة معارفهم، وعلو منازلهم، ما لا يلزم غيرهم، كان تشاغله عن تذكر النهي تضييعاً صار به عاصياً، أي مخالفاً. قال أبو أمامة: «لو أن أحلام بني آدم منذ خلق الله الخلق، إلى يوم القيامة وضعت في كفة ميزان، ووضع حلم آدم في كفة أخرى لرجحهم، وقد قال الله تعالى: ﴿ولم نجد له عزماً﴾^(١).

إذاً يتوضح لنا من أقوال العلماء والمفسرين أن آدم عليه السلام لم يتعمد مخالفة أمر الله عز وجل، وإنما أكل من الشجرة متأولاً، بطريق الاجتهاد، أو ناسياً لأمر الله تبارك وتعالى، فعاتبه ربه بإخراجه من الجنة وإنزاله إلى الأرض وذلك لحكمة إلهية سابقة، فلا يجوز لنا أن نرميه بالعصيان، مع أن ما وقع منه لم يكن إلا بسبب النسيان، ولا أن نسيء الأدب ولا سيما بعد أن نزل القرآن بقوله تعالى ﴿ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى﴾!

* * *

(١) تفسير القرطبي ٣٠٦/١.

عصمة إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام

- ٥ -

وأما بالنسبة لإبراهيم الخليل صلوات الله عليه فقد وردت بعض النصوص من الكتاب والسنة، ظاهرها يفيد عدم العصمة . . وهذا الظاهر غير مراد لأنه يعارض نصوصاً أخرى، ولا بد حين الجمع بين هذه النصوص، من فهمها على الوجه الذي يتفق مع عقيدة المسلم بـ (عصمة الأنبياء) الكرام .

أما النص الأول فهو في سورة الأنعام في قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ^(٧٦) ^(١)
فَلَمَّارَهُ الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ
الصَّالِينَ ^(٧٧) فَلَمَّارَهُ الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْفَوِّمُ إِنِّي
بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ^(٧٨) إِنِّي وَجْهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا
أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ^(٢) ﴾ .

فهذه الآيات الكريمة توهم بظاهرها أن إبراهيم كان شاكاً في الله، جاهلاً بعظمته، لا يدري من هو الإله المستحق للعبادة! .

(١) جَنَّ: بمعنى أظلم واشتد ظلامه، أفَلَ: بمعنى غاب، بازِغًا: طالعاً.

(٢) سورة الأنعام: الآيات (٧٦ - ٧٩) .

وقد يظن بعض الناس أن (إبراهيم) عليه السلام كان متأثراً ببيئة قومه، وأنه في بدء نشأته عبد معهم الكواكب. كما عبد الشمس والقمر، وهذا جهل فاضح وخطأ مبين، لا يصدر إلا عن جهل صفات الأنبياء الكرام، ولم يفقه معاني القرآن الحكيم..

فالله - جل ثناؤه - قد أخبر عن نبيه وخليله (إبراهيم) عليه السلام، بأنه قد أطلعه على ملكوت السموات والأرض، وأنه كان من المؤمنين الموحدين، الكاملين في الإيمان واليقين، وأن الله تعالى قد وهبه كمال الرشد منذ الصغر، وأعطاه الحجة الدامغة، التي تقصم ظهر كل معاند ومكابر، وأنه في مقام الاستدلال وإقامة البرهان على وجود الله الواحد الأحد، ما كان يغلبه أحد، استمع إلى صدر الآيات الكريمة، كيف أن الله عز وجل يسوق البراهين على كمال يقين إبراهيم فيقول جل ثناؤه:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَسْنَمَاءُ إِلَهَةٌ إِنِّي أَرَنكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٦﴾ وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى الْكُوكَبَاتِ... ﴿١﴾﴾

فالله عز وجل أعطى إبراهيم الحجج المقنعة، والبراهين الساطعة، التي بها قام الدليل على وجود الصانع الحكيم، فهو يجادل أباه بقوله: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً؟﴾ ثم يصفه وقومه بالضلالة في عبادة من لا يسمع، ولا يبصر، ولا يغني عن صاحبه شيئاً، فيقول: ﴿إِنِّي أُرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

ثم يأتي البرهان على كمال يقين إبراهيم بشهادة الله عز وجل:

﴿وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٢﴾﴾.

(١) سورة الأنعام: الآيات (٧٤ - ٧٦).

(٢) سورة الأنعام: الآية (٧٥).

والآيات التي جاءت بعدها إنما هي في مقام الاستدلال على وجود الله، وفي تقرير الحجة على قومه، بحيث يتنزل معهم إلى مستوى إدراكهم وفهمهم، ويتدرج معهم على حسب اعتقادهم، فيقول عن النجم: هذا ربي، ثم عن القمر ثم عن الشمس، ليبطل عقيدتهم في عبادة هذه الآلهة المزعومة بالمنطق السليم، وبالحجة والبرهان. . . ولهذا ختم الله عز وجل هذه القصة بقوله جل وعلا:

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ ذُنُوبِهِ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾^(١).

ولقد ذكر العلامة (الزمخشري) كلاماً رائعاً هو في منتهى الجودة والإتقان نقل طرفاً منه حول تفسير هذه الآيات الكريمة، قال رحمه الله:

(وكان أبوه وقومه يعبدون الأصنام، والشمس، والقمر، والكواكب، فأراد أن ينههم على الخطأ في دينهم، ويرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال، ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤد إلى أن شيئاً منها لا يصح أن يكون إلهاً، لقيام دليل الحدوث فيها، وأن وراءها محدثاً أحدثها، وصانعاً صنعها، ومدبراً دبر طلوعها وأفولها، وانتقالها ومسيرها، وسائر أحوالها. . . وقول إبراهيم (هذا ربي) قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطل، فيحكي قوله كما هو، غير متعصب لمذهبه، لأن ذلك أدعى إلى الحق، وأنجي من الشغب، ثم يكر عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة حيث يقول ﴿لا أحب الآفلين﴾ أي لا أحب عبادة الأرباب المتغيرين عن حال إلى حال، المنتقلين من مكان إلى مكان المحتجين بستر، فإن ذلك من صفات الأجرام، وقوله:

﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾^(٢).

(١) سورة الأنعام: الآية (٨٣).

(٢) سورة الأنعام: الآية (٧٧).

تنبيه لقومه على أن من اتخذ القمر إلهاً... وهو نظير الكواكب في الأفول - فهو ضال، وأن الهداية إلى الحق بتوفيق الله ولطفه^(١).

فالقصة التي ساقها القرآن الكريم، إنما ترمز إلى أسلوب الإقناع وقوة الحجّة، التي أعطاها الله سبحانه وتعالى، لنبيه وخليله إبراهيم عليه السلام، وكيف استطاع أن يفحم قومه في إقامة البرهان على وجود الله، وأن يبرهن لهم ضلالهم وخطأهم في عبادة الكواكب والشمس والقمر... ويظهر أن إبراهيم عليه السلام قد سلك معهم أيسر الطرق لبلوغ غرضه، فلم يجابههم بالضلال، وإنما تدرج معهم فادعى أن (الكوكب) الذي رآه ساطعاً في السماء هوربه، وذلك ليستأنسوا بكلامه، ثم لما غاب الكوكب أنكر إبراهيم أن يكون هذا الكوكب صالحاً. لأن يكون ربه، لأنه متغير متنقل، وذلك علامة الحدوث... ثم لما رأى (القمر) بازغاً مضياً في السماء، قال: هذا ربي، فلما غاب القمر ولم يعد له نور، أنكر أن يكون رباً معبوداً، وهنا لمّح إبراهيم إلى ضلالهم، ولكن بأسلوب في منتهى الحكمة حيث قال ﴿لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين﴾ فما عرض إلى التصريح بضلالهم وإنما اتهم نفسه بالضلالة، إن عبد هذا الإله المتحرك المتنقل، الذي تظهر عليه علامات الحدوث، وقوله: (من القوم الضالين) تلميح بضلال من عبد القمر.

ثم لما بزغت الشمس، وسطعت بأشعتها الذهبية على الكون، وأضاءت الوجود، قال: هذه الشمس ربي فهي أكبر المخلوقات وهي أحق بالعبادة من سائر النجوم والكواكب، وقال ذلك ليقم الحجّة على ضلالهم، فلما غابت الشمس، وتوارت خلف الأفق، ولم يعد لها ضياء أو نور... صرح هنالك بضلال من يعبدها أو يعبد تلك المحدثات، وتبرأ من قومه ومن عبادتهم لها وذلك بعد أن ظهرت الحجّة، وتبلج الحق، وبلغ من الظهور غاية المقصود، :

(١) تفسير الكشاف للزمخشري ٤٠/٢.

﴿قَالَ يَفْقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجْهَتُ وَجْهِي لِلذِّى فَطَرَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾﴾.

إلى قوله تبارك وتعالى :

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ
عَلِيمٌ ﴿٢﴾﴾.

فظهر أن هذه الأقوال من إبراهيم الخليل لم تكن شكاً في الله، ولم تكن
جهلاً بالخالق جل وعلا . . وإنما كانت من أجل إقامة الحجة على ضلال قومه، عن
طريق البرهان والاستدلال، وإفحامهم بأعظم الحجج الدامغة.

يقول (ابن العربي) في أحكام القرآن :

(والذي أوتيهِ إبراهيم عليه السلام من العلم بالحجة، بظهور دلالة التوحيد،
وبيان عصمة إبراهيم عن الجهل بالله تعالى، والشك فيه، والإخبار أن ما جرى بينه
وبين قومه إنما كان احتجاجاً، ولم يكن اعتقاداً) (٣).

فمن ظن بإبراهيم الشك، أو اعتقد أنه عبد الشمس أو الكواكب، فقد جانب
الحق، وأخطأ الفهم، وجهل صفات الأنبياء والمرسلين . . . وكيف يكون ذلك والله
جل جلاله قد أعطاه العقل وكمال الرشد قبل النبوة ﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل
وكناهه عالمين﴾ !! .

أما النص الثاني الذي يوهم عدم العصمة فهو قوله تعالى :

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمَّا تُوْمِنُ ۗ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن

(١) سورة الأنعام: الآيتان (٧٨ - ٧٩).

(٢) سورة الأنعام: الآية (٨٣).

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٧٣٢/٢.

لِيُظْمِنَ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ ^(١) إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ^(٢) .

فإن هذا النص الكريم قد يفهم منه أن إبراهيم الخليل كان شاكاً في قدرة الله على إحياء الموتى .. وهذا الفهم غير سليم . فمعاذ الله أن يشك إبراهيم في ربه أو في قدرة الله تعالى ، وهو أبو الأنبياء الذي وضع أسس التوحيد، وبنى أول بيت لعبادة الواحد القيوم .. فإبراهيم عليه السلام إنما سأل عن الكيفية ﴿كيف تحيي الموتى﴾ ولم يسأل عن الماهية فلم يقل: هل تقدر يا رب أن تحيي الموتى؟ والسؤال عن الكيفية إنما هو بقصد الشوق، والتطلع لرؤية أسرار الصنعة الإلهية .

يقول الشيخ (أحمد المنير) في تعليقه على تفسير الكشاف ما نصه:

(أما سؤال الخليل عليه السلام بقوله ﴿كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾؟ فليس عن شك – والعياذ بالله – في قدرة الله على الإحياء .. ولكنه سؤال عن كيفية الإحياء . ولا يشترط في الإيمان الإحاطة بصورتها . فإنما هي طلب علم ما لا يتوقف الإيمان على علمه .. ويدل على ذلك ورود السؤال بصيغة (كيف) وموضوعها السؤال عن الحال، ونظير هذا السؤال، أن يقول القائل: كيف يحكم زيد في الناس؟ فهو لا يشك أنه يحكم فيهم، ولكنه يسأل عن كيفية حكمه لا ثبوته، ولو كان الوهم قد يتلاعب ببعض الخواطر، فيطرق إلى إبراهيم شكاً من هذه الآية .. وقد قطع النبي عليه الصلاة والسلام دابر الوهم بقوله: «نحن أحق بالشك من إبراهيم ^(٣)» أي ونحن لم نشك، فلأن لا يشك إبراهيم أخرى وأولى .. وأراد بقوله (أولم تؤمن؟) أن ينطق إبراهيم بقوله: بلى آمنت، ليدفع عنه ذلك الاحتمال اللفظي في العبارة

(١) ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾: أي أضممهن إليك .

(٢) سورة البقرة: الآية (٢٦٠) .

(٣) الحديث أخرجه البخاري ٢٩٤/٦ فتح الباري، ومسلم رقم ١٥١ في الإيمان، والترمذي رقم ٣١١٥ في التفسير، وانظر ما قاله الحافظ ابن حجر في شرح الحديث .

الأولى، ليكون إيمانه مخلصاً نص عليه بعبارة يفهمها كل من يسمعها فهماً لا يلحقه فيه شك^(١).

ويقول (سيد قطب) عليه رحمة الله في تفسيره الظلال عند هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِذ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى . . .﴾؟ الآية، ما نصُّه: (إنه التشوف إلى ملابسة سر الصنعة الإلهية، وحين يجيء هذا التشوف من إبراهيم الأواه، الحلیم، المؤمن، الراضي، الخاشع، العابد، القريب، الخليل . . . حين يجيء هذا التشوف من إبراهيم فإنه يكشف عمّا يختلج أحياناً من الشوق، والتطلع لرؤية أسرار الصنعة الإلهية في قلوب أقرب المقربين!).

إنه تشوف لا يتعلق بوجود الإيمان وثباته وكمالته واستقراره، وليس طلباً للبرهان أو تقوية للإيمان . . . إنما هو أمر آخر، له مذاق آخر . . . إنه أمر الشوق الروحي إلى ملابسة السر الإلهي، في أثناء وقوعه العملي . . . ومذاق هذه التجربة في الكيان البشري مذاق آخر غير مذاق الإيمان بالغيب، ولو كان هو إبراهيم الخليل الذي يقول لربه، ويقول له ربه، وليس وراء هذا إيمان، ولا برهان للإيمان، ولكنه أراد أن يرى يد القدرة وهي تعمل، ليحصل على مذاق هذه الملابس فيستروح بها، ويتنفس في جوها، ويعيش معها، وهي أمر آخر غير الإيمان الذي ليس بعده إيمان!^(٢).

ما هي الكذبات الثلاث؟

أما ما ورد في السنة النبوية مما يشير ظاهره إلى (عدم العصمة) بحق إبراهيم عليه السلام، وذلك في قوله عليه السلام:

«لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات: اثنتين منهن في ذات الله، قوله ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقوله ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ . . . وقال: بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على

(١) تفسير الكشاف ٣٠٨/١.

(٢) في ظلال القرآن ٤٥/٣.

جبار من الجابرة، فقيل له: إن ههنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه فسأله عنها: من هذه؟ قال: أختي.

فأتى فقال لها: إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختي.. فإنك أختي في الإسلام، ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، فأرسل إليها فأتى بها، وقام إبراهيم يصلي، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده، فأخذ حتى ركض برجله، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت الله فأطلق، ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك.. فدعت الله فأطلق، فدعا بعض حجبه فقال: إنك لم تأتني بإنسان إنما أتيتني بشيطان، فأخدمها هاجر، فأنته وهو قائم يصلي فأوماً بيده مهيم؟ قالت: رد الله كيد الكافر في نحره، وأخدمني هاجر. قال أبو هريرة: تلك أمكم يا بني ماء السماء» رواه البخاري ومسلم.

فهذا الحديث الشريف ليس فيه ما يدل على عدم العصمة، لأن النبي ﷺ لم يقصد بهذه الكذبات الثلاث حقيقة معنى الكذب: إنما قصد أن إبراهيم الخليل أخبر بإخبارات توهم الكذب في الصورة وهي ليست بكذب في الحقيقة والواقع. فقول إبراهيم لقومه: ﴿إني سقيم﴾ وقوله: ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾ إنما هو نوع من التهكم والسخرية بهم وبآلهتهم المعبودة فأراد بقوله: ﴿إني سقيم﴾ المعنى المجازي: أي إني سقيم من عبادتكم لهذه الأصنام، التي لا تسمع ولا تنفع، ولا تغني عن صاحبها شيئاً.. وكما يكون الإنسان سقيم الجسم يكون سقيم النفس وخاصة إذا رأى قومه في الجهالة والضلالة يتيهون، ودعاهم إلى الهدى ولكنهم ظلوا في ضالتهم يعمهون!

وقوله: ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾ لم يكن في الحقيقة كذباً وإنما هو نوع من الحججة الدامغة، والبرهان الساطع أراد أن يقيمه إبراهيم على قومه فحين سألوه: من حطم هذه الأصنام؟ أشار إلى الصنم الأكبر، سخرية وتهكماً بهم وبهذه

الأصنام، ثم لما رأهم متعجبين من كلامه أجابهم بالجواب المسكت ﴿فاسألوهم إن كانوا ينطقون﴾؟.

وأما قوله لزوجته سارة: (إنك أختي) فإنما قصد به أخوة العقيدة وأخوة الإيمان كما قال تعالى ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ ولم يقصد به أخوة النسب لأنها زوجته وليست أخته. وكل هذا إنما هو من التعريض لا من الكذب الذي يؤاخذ صاحبه ويأثم فاعله، وقد روي: «إن في المعارض لمندوحة عن الكذب»^(١) أي إن في التعريض ما يمنع المسلم عن الوقوع في الكذب المحرم. فليس إذاً في كلام إبراهيم ما يدل على تعمد الكذب الذي يخل بعصمة الأنبياء وإنما هو نوع من التعريض المباح. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

* * *

(١) الحديث أخرجه البخاري في الأدب ترجمة ٥٧/٨ باب المعارض مندوحة عن الكذب.

عصمة يوسف الصديق عليه السلام

- ٦ -

وفي قصة يوسف الصديق عليه السلام، التي قصها علينا القرآن الكريم، صور مشرقة عن نزاهة هذا النبي الكريم وبراءته وعصمته، مع ما أعطاه الله عز وجل من الجمال، وما كساه من البهاء والجلال، حتى افتتنت به امرأة العزيز - عزيز مصر - فصنعت ما صنعت بقصد إغوائه وإغرائه ولكنه عليه السلام كان أصلب من الحديد، وأقوى من الجبال، فلم تؤثر فيه تلك العواصف الهوج، والمكائد المدبرة، التي اصطنعها النسوة مع امرأة العزيز، والتي قص علينا القرآن الكريم طرفاً منها كما قال تعالى:

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۗ قَد شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَآتَتْ كُلَّ وَجْدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّارَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿١﴾ .

افتراء وبهتان:

ومما تجدر الإشارة إليه أن بعض البسطاء السذج، ممن ليس لهم قدم راسخ في العلم، قد اغتروا ببعض روايات إسرائيلية باطلة مكذوبة، لا يصح أن تروى

(١) سورة يوسف: الآيات (٣٠ - ٣١).

أو تذكر في كتب التفسير، وقد نبه عليها العلماء الأثبات، والحفاظ الثقات، لأنها تصادم النصوص القرآنية الكريمة، وتتنافى مع (عصمة الأنبياء) الأطهار.

من هذه الروايات الباطلة المفتراة على الصديق يوسف عليه السلام، أنه حين راودته امرأة العزيز عن نفسها، وطلبت منه أن يواقعها، استجاب لها واستكان، وحاول أن يرتكب معها الفاحشة وأنه عليه السلام حلَّ سراويله وقعد بين شعبها الأربع، وهمَّ أن يواقعها وهي مستلقية على قفاها، ولكنه سمع صوتاً يناديه، وتصور له والده «يعقوب» عليه السلام وهو عاض على أصابعه. . . تصور له على جدار الغرفة، فخجل واستحيا وترك ما كان قد همَّ عليه من فعل الفاحشة بزوجة عزيز مصر. . . وقد نسي هؤلاء الزاعمون أن «يوسف الصديق» نبي مكرم، وأن الله قد حفظه وصانه من رجس المعاصي والفواحش، وأي منكر أعظم، وأية فاحشة أكبر من ارتكاب الزنى، ثم خيانة سيده الذي تعهده ورباه، وأحسن نُزله ومثواه؟!!

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَا مَرَأِيَهُ أَكْرَمِيَ مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَخْذَهُ
وَلَدًا... ﴾ (١) الآية .

ولم ينس يوسف الصديق هذه المعاملة الحسنة من سيده، بل ذكر امرأة العزيز حين راودته عن نفسها بهذا الجميل والإحسان الذي فعله معه سيده وأسداه إليه، فكيف يخونه في شرفه وعرضه؟

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٢) .

إن الزنى جريمة من أبشع الجرائم، حرمتها الأديان السماوية، فكيف يرتكبها نبي من أنبياء الله؟! سبحانك هذا بهتان عظيم!! .

(١) سورة يوسف: الآية (٢١).

(٢) سورة يوسف: الآية (٢٣). ومعنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ أي إن زوجك هو سيدي ومالك أمري، أحسن إقامتي وضيافتي، فكيف أخونه في أهله؟

والذي جعل هؤلاء يخبطون خبط عشواء، في قبول أمثال هذه الأباطيل والأكاذيب، المنقولة عن الإسرائيليات، هو النصُّ القرآني الكريم، الذي جاء في أثناء عرض قصة يوسف عليه السلام، والذي فهمه هؤلاء البسطاء فهماً خاطئاً، لا يتفق مع عصمة الأنبياء، ولا ينسجم مع النصوص القرآنية الأخرى.

ذلك النص هو قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا ۖ أَنَّ رَجَا بُرْهَانَ رَبِّهٖ ۖ...﴾ (١) الآية.

فقد فسروا الهمَّ من يوسف على أنه مطاوعة منه لامرأة العزيز، وعزمٌ على قربانها. وفسروا البرهان على أنه الصورة التي ظهر بها والده يعقوب عليه السلام وهو يعرض على أنامله حتى ترك يوسف ذلك العمل القبيح.

وهذا التأويل باطل لا يجوز بحال من الأحوال، للوجوه الآتية التي سنذكرها فيما بعد إن شاء الله . . وقد نبه كثير من المفسرين إلى أمثال هذه الإسرائيليات، وبينوا بطلانها لثلاث أسباب: ينخدع بعض المسلمين بها فيظنوا أنها أخبار حقيقية موثوقة، يقول العلامة الشيخ عبد الله بن أحمد النسفي في تفسيره:

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ﴾ الهم عزم ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ الهم الطباع مع الامتناع، ولو كان همُّ كهمِّها، لما مدحه الله تعالى بأنه من عباده المخلصين، وفيه إشعار بالفرق بين الهمِّين، وما قيل: إنه قعد بين شعبها الأربع، وهي مستلقية على قفاها . . وفسروا «البرهان» بأنه سمع صوتاً يناديه: إِيَّاكَ وَإِيَّاهَا مرتين، ثم سمع في الثالثة: أعرض عنها، فلم ينجع فيه (أي لم ينفع فيه ذلك النداء) حتى مثل له يعقوب عاصباً على أناملته . . إلخ، قال الشيخ: فهذا باطل ويدلُّ على بطلانه قوله: ﴿هي راودتني عن نفسي﴾ ولو كان ذلك منه لما برأ نفسه من ذلك، وقوله ﴿ذلك ليعلم أنني لم أخنهُ بالغيب﴾ ولو كان ذلك لخانه بالغيب، وقوله ﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء﴾ ولو كان كذلك لم يكن السوء مصروفاً عنه إلخ.

(١) سورة يوسف: الآية (٢٤).

أقول: إن الآية الكريمة لها مفهوم دقيق، ينبغي ألا يغفل عنه واسع العلم،
دقيق البصر، ذلك أن الهمَّ الذي وقع من امرأة العزيز كان همَّ سوء، كانت تدعوه
إلى نفسها من أجل عمل الفاحشة، ومن أجل ذلك راودته عن نفسه بعد أن
أحكمت إغلاق الأبواب وحاصرته في الدار كما قال تعالى:

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ
مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (١).

أما الهمُّ الذي كان من يوسف الصديق فلم يكن همَّ سوء، ولم يكن عزمًا
على خيانة أو فاحشة، وما خطر بباله عليه السلام شيء مما يتوهمه بعض الجهلاء
من إرادة السوء أو عمل الفاحشة. . وإنما كان همُّه أن يدفع العدوان عنه، أن
يدفع عنه هذه المكيدة الخبيثة التي دبرتها له سيدته امرأة العزيز. . ولهذا نجد
الصلابة في موقفه، والمقاومة العنيفة في حديثه ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ
مَثْوَايَ﴾.

فالهمُّ منها غير الهمِّ منه، همَّتْ به طلباً، وهمَّ بها دفعاً كما يقول بعض
المفسرين.

أو نقول: إن الهمَّ منها وقع فعلاً، وأمَّا همَّ يوسف فكان بالطبع، أي إنه
عليه السلام مال إليها بطبيعته الفطرية مع الامتناع عن مقارفة السوء، والإنسان غير
مؤاخذ على ما تشتهيه نفسه أو يميل إليه طبعه ما لم يعزم على فعل الشيء. . وهذا
ما فسره به (النسفي) رحمه الله حيث قال: ﴿هَمَّتْ بِهِ﴾ همَّ عزم ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ هم
الطباع مع الامتناع.

ويرى بعض المفسرين أن في الآية تقدماً وتأخيراً ويصبح المعنى: ﴿لَوْلَا أَنْ

(١) سورة يوسف: الآية (٢٣).

رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴿ المعنى لولا برهان الله، أي: عصمته ليوسف لهم بها، ولكن عصمة الله تعالى له حالت دون ذلك لهم.

وهناك أقوال أخرى للمفسرين تبرئ ساحتهم عليه السلام مما نسب إليه أهل الكتاب وقبيله بعض البسطاء من المسلمين من الإسرائيليات المكذوبة.

الأدلة على عصمة يوسف عليه السلام:

وهناك وجوه عشرة على عصمة يوسف وبراءته عليه السلام من تلك التهمة الشنيعة التي نسبها إليه من لا يعرف قدر النبوة ولا عظمة الرسالة، ولا صفات الأنبياء الكرام صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. . . ونحن نوجزها فيما يلي:

الوجه الأول: امتناعه عليه السلام عن مطاوعة امرأة العزيز ووقوفه في وجهها بكل صلابة وعزم:

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ (١).

الوجه الثاني: فراره عليه السلام من امرأة العزيز بعد أن حاصرته وضيقته عليه الخناق، وأرادته ليمتع نفسها بالغضب والإكراه، ولو كان يوسف قد هم بالفاحشة لما فر منها، لأن الذي يريد عمل الفاحشة يقدم ولا يفر قال تعالى:

﴿ وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ . . . ﴾ (٢) الآية.

الوجه الثالث: شهادة بعض أقرباء زوجة العزيز ببراءة يوسف حيث أشار بفحص ثوبه لأنه إذا كان هو الطالب لها وهي الممتنعة فإن ثوبه سيشق من أمام وإن كانت هي الطالبة له وهو الممتنع الهارب منها فإن ثوبه سيشق من خلف، قال تعالى:

(١) سورة يوسف: الآية (٢٣).

(٢) سورة يوسف: الآية (٢٥).

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدِّمَ قَبْلَ فِصْدَقَتِ وَهُوَ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾ (٦) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدِّمَ دُبُرًا فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ فَلَمَّ آرَأَ قَمِيصَهُ قُدِّمَ دُبُرًا قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٨﴾ .

وقيل: إن الذي شهد هو طفل كان في المهد أنطقه الله بهذه الحجة الدامغة لتظهر براءة يوسف عليه السلام، وهو أحد الثلاثة الذين تكلموا في المهد، ولا عجب فالله على كل شيء قدير.

الوجه الرابع: تفضيله السجن على الفاحشة:

﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٩) .

وهذا من أعظم البراهين على براءته عليه السلام، إذ كيف يُعقل أن يفضل شخص السجن على شيء يرغبه ويتمناه، ولو أنه استجاب لدعوتها، وطاوعها على نفسها، لما لبث في السجن بضع سنين، بسبب تلك التهمة التي ألحقتها به. فدعوى هم يوسف بامرأة العزيز باطلٌ ظاهر البطلان، يدرك ذلك كل منصف درس تاريخ هذا النبي الكريم، وفهم معاني القرآن العظيم.

الوجه الخامس: ثناء الله عز وجل عليه في مواطن عديدة من السورة كما قال تعالى:

﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِن عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (١٠) .

وقال تعالى في صدر هذه القصة:

(١) سورة يوسف: الآية (٢٦).

(٢) سورة يوسف: الآية (٣٣).

(٣) سورة يوسف: الآية (٢٤).

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ... ﴿١﴾﴾

فقد أخبر الله تعالى عنه بأنه من المحسنين وأنه من عباده المخلصين، الذين اختارهم الله لنبوته، وأخلصهم لطاعته وعبادته، وهل يكون ثناء الله تبارك وتعالى إلا على من صفت نفسه، وطهرت سريرته من كل نية سيئة، وكل عمل قبيح، فكان من الأطهار المقربين؟ وقد شهد رسول الله ﷺ له أيضاً بالصلاح والتقوى، وبالطهارة والاستقامة فقال صلوات الله عليه: «الكريمُ ابنُ الكريم، ابنُ الكريم، ابنُ الكريم، يوسفُ بنُ يعقوبَ، بنُ إسحاقَ، بنِ إبراهيمَ»^(٢).

وكفى بذلك شرفاً وفضلاً!!

الوجه السادس: اعتراف امرأة العزيز نفسها بعصمته وعفته أمام جمع من نسوة المدينة، كما قال تعالى:

﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ أُنْفُسُ الْكَافِرِينَ مِنْ أُمَّةٍ قَدَرْنَ يَدْيَهُنَّ وَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا أَمَلٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾
قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ... ﴿٣﴾ الآية.

فهذه شهادة صريحة واضحة على عفة يوسف وبراءته صدرت من نفس امرأة العزيز، التي اتهمته أمام زوجها بعمل الفاحشة، ولفظ (استعصم) يدل على الامتناع البليغ، والتحفظ الشديد، كأنه في عصمة من الأمر وهو يجتهد في الاستزادة منها، وهذا بيان جلي على أن يوسف عليه السلام بريء مما فسره به بعض الناس (الهمم والبرهان) كما أسلفنا بطلانه فيما سبق.

(١) سورة يوسف: الآيتان (٢٢ - ٢٣).

(٢) الحديث أخرجه البخاري في الأنبياء والتفسير ٣٦١/٨ من فتح الباري؛ وأحمد في المسند ٩٦/٢؛ والترمذي في التفسير أيضاً.

الوجه السابع : ظهور أمارات البراءة على يوسف عليه السلام بالدلائل الواضحة، والبراهين الساطعة أمام جميع الشاهدين، ومع ذلك فقد أقدم عزيز مصر على سجنه إبهاماً للناس وسترأ على زوجته قال تعالى :

﴿ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَ جُنَّتْهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾^(١).

قال العلامة النسفي في تفسيره :

﴿ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ﴾ أي ظهر لهم والضمير يعود للعزيز وأهله ﴿من بعد ما رأوا الآيات﴾ وهي الشواهد على براءة يوسف كقدِّ القميص، وقطع الأيدي، وشهادة الصبي، وغير ذلك ﴿لَيْسَ جُنَّتْهُ﴾ لإبداء عذر الحال.. وإرخاء الستر على القيل والقال، وما كان ذلك إلا باستترال المرأة لزوجها وكان مطاوعاً لها، وحملاً ذلولاً زمأمه في يدها، ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إلى زمان كأنها اقترحت أن يسجن زمناً حتى تبصر ما يكون منه^(٢).

الوجه الثامن : استجابة الله عز وجل لدعوة يوسف حين طلب من ربه أن يصرف عنه كيدهن ومكرهن الخبيث به، ولو كان له رغبة في مطاوعة زوجة العزيز لما طلب من الله أن يصرف عنه كيدهن، وفي ذلك يقول الله تعالى :

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٣).

الوجه التاسع : عدم قبول يوسف الخروج من السجن حتى تظهر براءته أمام جميع الناس، وذلك يدل على منتهى شهامته، وعفته، ونزاهته، ولولا ذلك لما فضل البقاء في السجن بعد أن مكث فيه سبع أو تسع سنوات ولاقى فيه

(١) سورة يوسف : الآية (٣٥).

(٢) تفسير النسفي ٢/٢٢١.

(٣) سورة يوسف : الآية (٣٤).

الشدائد، فلم يقبل الخروج من السجن حتى يقر الجميع ببراءته وتنزه ساحته من تلك التهمة الشنيعة:

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْئَلَهُ مَا بَالَ الْيَسُوقِ
الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ (١).

الوجه العاشر: وأخيراً الاعتراف الصريح من النسوة ومن امرأة العزيز التي اتهمته بنفسها، وذلك لا يدع ذرة من شك في براءة يوسف ونزاهته وعصمته مما نسب إليه وذلك حين جمع العزيز النسوة وسألهن عن يوسف الصديق فأجبنه بجواب صريح قاطع:

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ
سُوءٍ قَالَتُ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ اتَّقِنِ الصِّحْصِصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾
ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ (٢).

هذه عشرة وجوه في عصمة الصديق يوسف عليه السلام وبرأته مما نسب إليه من الزور والبهتان، اقتبستها من القرآن الكريم. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

— ٧ —

ما ورد بشأن نوح عليه السلام:

ومن هذه النصوص الكريمة قول الله تعالى في قصة نوح عليه السلام:

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ
﴿٤٥﴾ قَالَ يَسُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَلِنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطَكَ
أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٣).

(١) سورة يوسف: الآية (٥٠).

(٢) سورة يوسف: الآيتان (٥١ - ٥٢).

(٣) سورة هود: الآيتان (٤٥ - ٤٦).

فنوح عليه السلام إنما سأل ربه أن ينجي ولده، لأن الله عز وجل قد وعده بإنجاء أهله وإهلاك الظالمين، وولده من أهله، وكان ابنه قد وعده بالإيمان، فطلب من الله أن ينجيه من الغرق اعتقاداً منه بأن ولده على دينه، ولم يعلم بحقيقة كفره إلا بعد أن أظهر الله تعالى ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي إنه ليس من أهلك الذين وعدتك بإنجائهم، لأنه غير مؤمن، وقد وعدتك بإنجاء المؤمنين، عند ذلك تبرأ نوح من ولده.

ثم إن نوحاً عليه السلام لم يرتكب هنا معصية أو إثماً، وإنما دعا الله أن ينجي ولده، وأخذته الشفقة والعاطفة الأبوية، بكونه بشراً وأباً رحيماً فطلب من الله أن يلهم ولده الإيمان، لينجو من الغرق، فأخبره الله تعالى بأنه قد سبقت له الشقاوة وأنه من الهالكين.

قال الشيخ أبو منصور رحمه الله عند تفسير هذه الآية الكريمة:

«وقد كان عند نوح عليه السلام أن ابنه كان على دينه، لأنه كان ينافق، وإلاً لا يحتمل أن يقول: ابني من أهلي، ويسأله نجاته، وقد سبق منه النهي عن سؤال مثله بقوله جلّ وعلا:

﴿وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ﴾^(١).

فكان نوح يسأله على الظاهر الذي عنده، كما كان أهل النفاق يظهرون لنا عليه السلام الموافقة، ويضمرون الخلاف له، ولم يعلم بذلك حتى أطلعه الله تعالى عليه، وقوله: ﴿ليس من أهلك﴾ أي: من الذين وعدتك النجاة لهم، وهم المؤمنون حقيقة في السر والعلن^(٢).

(١) سورة هود: الآية (٣٧).

(٢) انظر: تفسير النسفي ١٩٢/٢.

ما ورد بشأن يونس عليه السلام:

ومن النصوص الكريمة قول الله تعالى في قصة يونس عليه السلام:

﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخَيِّجُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

فإن ظاهر هذه الآية قد يوهم أن (يونس) عليه السلام قد فعل ما أغضب الله عز وجل، وأنه شك في قدرة الله على الانتقام منه، وهذا فهم خاطيء وتفسير للآية الكريمة على غير معناها الصحيح، وقد وقع في هذا الوهم بعض الجهلاء، فظنوا أن (يونس) عليه السلام قد وقع في المعصية، وخالف أمر الله فذهب مغاضباً لربه، فابتلعه الحوت بسبب هذا الذنب.

والصحيح الذي ذكره المفسرون في معنى هذه الآية الكريمة أن (يونس) عليه السلام كان قد أذنب قومه، وحذرهم من عذاب الله إن لم يؤمنوا، فتمادوا في ضلالهم وكفرهم فأوعدهم بالعذاب العاجل، فلما تأخر عنهم العذاب، خرج كالمستور منهم ليتوارى عن أنظارهم، خشية أن يهزأوا منه ويسخروا، ويتهموه بالكذب على الله حيث أخبرهم بنزول العذاب ولم ينزل، فخرج مغاضباً لقومه، لا مغاضباً لربه — وحاشاه — عليه أفضل الصلاة والسلام أن يغضب ربه، أو يعصي له أمراً. قال الشيخ أبو البركات عبد الله النسفي في تفسيره:

قوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَضِبًا...﴾ الآية المعنى: أذكر صاحب الحوت، والنون الحوت فأضيف إليه ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَضِبًا﴾ أي: مراغماً لقومه ومعنى مغاضبته لقومه أنه أغضبهم بمفارقته، لخوفهم حلول العقاب عليهم عندها. . . روى أنه برم^(٢) بهم لطول ما ذكرهم، فلم يتعظوا وأقاموا على كفرهم فراغمهم وظن أن

(١) سورة الأنبياء: الآيتان (٨٧ — ٨٨). (٢) برم بهم: أي ضاق ذرعاً بتكذيبهم له.

ذلك يسوغ حيث لم يفعله إلا غضباً لله، وبغضاً للكفر وأهله، وكان عليه أن يصابر الإذن من الله تعالى في المهاجرة عنهم فابتلي ببطن الحوت. (١).

فالمغاضبة كانت لقومه لا لربه، والمعاتبة كانت لعدم الصبر، ولخروجه من بين قومه بغير إذن من الله تعالى، ولهذا أمر الله رسوله الكريم، أن يصبر على تكذيب المشركين، وألاً يكون ضيق الصدر، قليل الصبر كما كان شأن يونس عليه السلام مع قومه، حيث ضربه الله تعالى مثلاً فقال عز من قائل:

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَوْلَا أَن تَدْرَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ (٢).

وقوله تعالى: ﴿لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ جواب «لولا» ومعلوم أن «لولا» في اللغة العربية هي حرف امتناع لوجود أي أنها تفيد امتناع الجواب لوجود الشرط. ومعنى الآية الكريمة: لولا أن الله أنعم عليه بإجابة دعائه وقبول عذره لنبذ من بطن الحوت (بالعراء) أي بالفضاء وهو (مذموم) أي معاتب بزلاته، لكنه رحم فنبذ غير مذموم.

وأما قوله تعالى في الآية السابقة:

﴿فَظَنَّ أَن لَّنْ نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ (٣).

فهي من القَدْرِ (٤) لامن القدرة كما قال ابن عباس رضي الله عنهما، فقد روي أنه دخل يوماً على معاوية، فقال له معاوية: لقد ضربتني أمواج البحر البارحة ففرقت فيها، فلم أجد لنفسي خلاصاً إلا بك، فقال ابن عباس وما هي يا معاوية؟

(١) تفسير النسفي الجزء الثالث ص ٨٧.

(٢) سورة القلم: الآيات (٤٨ - ٥٠).

(٣) سورة الأنبياء: الآية (٨٧).

(٤) القَدْر: بمعنى التشديد والتضييق كقوله سبحانه ﴿ومن قُدِّرَ عليه رزقه﴾ أي ضيق عليه.

فقرأ الآية ثم قال: أويظن نبي الله أن لا يقدر عليه ربه؟ فقال ابن عباس: هذا من القدر لا من القدرة، والمعنى: فظن أن لن نضيق عليه بسبب خروجه بغير إذنا قال تعالى: ﴿وَمَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ أي: ضيق، وقال تعالى:

﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ﴾ (١).

أي: ضيق عليه رزقه، فزال بذلك الإشكال، والله أعلم.

* * *

(١) سورة الفجر: الآية (١٦).

عصمة خاتم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم

- ٩ -

والرسول عليه أفضل الصلاة والتسليم - كبقية الرسل الكرام - معصوم من الذنوب والآثام، محفوظ بعناية الله عز وجل، محاط برعايته، فلا يمكن أن تقع منه مخالفة لأمر الله، أو يرتكب ذنباً يستحق عليه العقوبة.

ولكنه ﷺ قد يجتهد فيفعل خلاف الأفضل والأحسن فيعاتبه ربه.. وليس هذا من قبيل الذنب والمعصية، وإنما هو من قبيل التنبيه إلى فعل الأكمل والأفضل وإن كان بالنسبة لمقام الأنبياء يعتبر فعل خلاف الأفضل خطأ يستحق عليه المؤاخظة والعتاب على حد قول بعضهم: (حسنات الأبرار سيئات المقربين).

وسنعرض إلى بعض نصوص كريمة ورد فيها العتاب لرسول الله ﷺ ونبين فيها وجه الحق وما ورد فيها من العتاب، كما نعرض لنصوص أخرى ظاهرها يفيد وقوع الرسول في المخالفة والمعصية ونوضح معناها على ضوء أقوال أئمة التفسير، وضوء الكتاب والسنة، فنقول ومن الله نستمد العون:

- ١٠ -

النص الأول: قال تعالى:

﴿ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ، أَسْرَى حَتَّى يُشْخَنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٦٧) لَوْلَا كُنْتُ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لِمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١).

(١) سورة الأنفال: الآيتان (٦٧ - ٦٨).

النص الثاني : قال تعالى :

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ
الْكٰذِبِينَ﴾ (١).

النص الثالث : قال تعالى :

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٦٦﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴿٦٧﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ﴿٦٨﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ (٢).

النص الرابع : قال تعالى :

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَٰنَا إِلَيْكَ لِنَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرُهُ وَإِذَا
لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٦﴾ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّنَّاكَ لَقَدْ كُنْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٧﴾ إِذَا
لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٨﴾﴾ (٣).

النص الخامس : قوله تعالى :

﴿يَتَّبِعُهَا النَّاسُ لِيَلْفِظُوا مِنْكَ الْكُفْرَيْنَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا
﴿١﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ (٤).

النص السادس : قوله تعالى :

﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ
جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٥﴾﴾ (٥).

(١) سورة التوبة : الآية (٤٣).

(٢) سورة عبس : الآيات (١ - ٤).

(٣) سورة الإسراء : الآيات (٧٣ - ٧٥).

(٤) سورة الأحزاب : الآيات (١ - ٢).

(٥) سورة يونس : الآية (٩٤).

النص السابع : قوله تعالى :

﴿ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سَلْمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (١).

النص الثامن : قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمِمَّنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢).

النص التاسع : قوله تعالى :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ (٣).

النص العاشر : قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَخُفِيَ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ (٤).

العتاب في أسرى بدر :

أما الآية الأولى التي فيها عتاب للرسول ﷺ ، والتي توهم أن الرسول الكريم

قد خالف أمر الله ، وأنه فعل ما لم يرض به الله ، فهي قوله تعالى :

(١) سورة الأنعام : الآية (٣٥).

(٢) سورة الأنعام : الآية (٥٢).

(٣) سورة الفتح : الآيتان (١ - ٢).

(٤) سورة الأحزاب : الآية (٣٧).

﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُثَخِّنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا
وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٦٧) ﴿لَوْلَا كَتَبَ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ
عَظِيمٌ﴾ (١).

ولعل بعض البسطاء يظن أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد ارتكب ذنباً، أو فعل جرماً، أو عصى أمراً لرب العالمين، حتى نزل هذا العتاب الشديد مع أن الأمر ليس كما يظنون، وإنما غاية أن الرسول ﷺ قد استشار بعض الصحابة في (أسرى بدر) ثم اجتهد فحكم بترجيح رأي الأكثرين، فقبل الفداء من الأسرى، وكان هذا الاجتهاد منه عليه الصلاة والسلام خلاف الأفضل والأحسن والأولى، لأن مصلحة الدعوة ومصلحة الإسلام كانت تقتضي ألا يقبل عليه الصلاة والسلام منهم الفداء، بل يسفك ويريق منهم الدماء، لتضعف شوكة الكفر، وتهن عزيمة المشركين، ويكون العز والنصر لعباد الله المؤمنين لا سيما وأن هذه المعركة هي أول حرب تقع بين المؤمنين والمشركين.

ونذكر هنا بعض الروايات لأصحاب التفسير بالمأثور حول نزول هذه الآية الكريمة:

١ - روى الترمذي والحاكم والبيهقي، عن ابن مسعود رضي الله عنه، أنه قال:

(لما كان يوم بدر جيء بالأسارى فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله قومك، وأهلك، استبقهم لعل الله أن يتوب عليهم).

وقال عمر: يا رسول الله كذبوك، وأخرجوك، وقاتلوك، قدمهم فاضرب أعناقهم.

وقال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه: انظروا وادياً كثيراً الحطب فأضرموه عليهم ناراً.

(١) سورة الأنفال: الآيتان (٦٧ - ٦٨).

فقال العباس وهو يسمع ما يقول: قطعت رحمك.

فدخل النبي ﷺ ولم يرد عليهم شيئاً فقال أناس: يأخذ بقول أبي بكر رضي الله عنه، وقال أناس يأخذ برأي عمر رضي الله عنه، فخرج رسول الله ﷺ فقال: «إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن.. وإن الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة.

مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم عليه السلام إذ قال:

﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١).

ومثلك يا أبا بكر كمثلي عيسى عليه السلام إذ قال:

﴿إِنْ تَعَذَّبْتَهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢).

ومثلك يا عمر كمثلي نوح عليه السلام إذ قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنْ

الكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ ومثلك يا عمر كمثلي موسى عليه السلام إذ قال:

﴿رَبَّنَا أَطْمِئِنَّ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَشَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (٣).

ثم قال عليه السلام: «أنتم عائلة فلا ينفلتن أحد منكم إلا بفداء أو ضرب عنق فقال

عبد الله: يا رسول الله إلا (سهيل بن بيضاء) فإنه سمعته يذكر الإسلام فسكت

رسول الله ﷺ فما رأيتني في يوم أخوف من أن تقع علي الحجارة مني في ذلك

اليوم حتى قال رسول الله ﷺ: إلا سهيل بن بيضاء... فأنزل الله تعالى:

﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُشْخِصَ فِي الْأَرْضِ...﴾ (٤) الآية.

(١) سورة إبراهيم: الآية (٣٦).

(٢) سورة المائدة: الآية (١١٨).

(٣) سورة يونس: الآية (٨٨).

(٤) سورة الأنفال: الآية (٦٧).

وَرَوَى أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ :

(لَمَّا أُسْرُوا الْأَسْرَى يَعْنِي يَوْمَ بَدْرٍ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ : « مَا تَرُونَ فِي هَؤُلَاءِ الْأَسْرَى ؟ » فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : يَا رَسُولَ اللَّهِ هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ ، أَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ فِدْيَةً فَتَكُونَ قُوَّةً لَنَا عَلَى الْكُفَّارِ ، وَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلْإِسْلَامِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَّابِ ؟ » فَقَالَ : لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا أَرَى الَّذِي أَرَى أَبُو بَكْرٍ ، وَلَكِنِّي أَرَى أَنْ تَمَكَّنَّا فَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ ، فَتَمَكَّنَ عَلِيًّا مِنْ عَقِيلٍ (أَيِ أَخِيهِ) فَيَضْرِبُ عُنُقَهُ ، وَتَمَكَّنَنِي مِنْ فُلَانٍ - قَرِيبٍ لِعَمْرٍ - فَأَضْرِبُ عُنُقَهُ ، وَتَمَكَّنَ فُلَانًا مِنْ فُلَانٍ قَرَابَتَهُ ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ أُمَّةُ الْكُفْرِ وَصِنَادِيدُهَا .

فَهَوِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ ، وَلَمْ يَهُوَ مَا قُلْتُ ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ جِئْتُ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ قَاعِدِينَ يَبْكِيَانِ . . . قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ : أَخْبِرْنِي مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَبْكِي أَنْتَ وَصَاحِبُكَ ، فَإِنْ وَجَدْتُ بَكَاءَ بَكَيْتَ ، وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بَكَاءَ تَبَاكَيْتَ لِبَكَائِكُمَا ؟ ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ ، لَقَدْ عَرَضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ - لِشَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْهُ - وَأَنْزَلَ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ :

﴿ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُنْجَخَ فِي الْأَرْضِ . . . ﴾ (١) (الآية).

فَقَدْ دَلَّ هَذَا الْحَدِيثَ الشَّرِيفَ عَلَى أَنَّ الَّذِينَ أَشَارُوا عَلَى الرَّسُولِ ﷺ بِأَخْذِ الْفِدَاءِ كَثِيرُونَ وَإِنَّمَا ذَكَرَ فِي أَكْثَرِ الرِّوَايَاتِ (أَبُو بَكْرٍ) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ أَشَارَ بِذَلِكَ فَقَدْ اسْتَشَارَهُ ﷺ أَوَّلَ مَا اسْتَشَارَ أَصْحَابَهُ ، كَمَا أَنَّهُ أَكْبَرُهُمْ مَقَامًا وَأَجْبَهُمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

فَهَذَا الْعِتَابُ الشَّدِيدُ مِنَ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ لِنَبِيِّهِ وَأَصْحَابِهِ الْأَبْرَارِ ، كَانَ بِقَصْدِ التَّعْلِيمِ وَالتَّنْبِيهِ إِلَى الْأَخْذِ بِالْأَكْمَلِ وَالْأَفْضَلِ وَالتَّرِثِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأُمُورِ الدَّقِيقَةِ ،

(١) انظر صحيح الإمام مسلم ٣/١٣٨٥ .

فالله عز وجل يريد عزة الإسلام ورفعة شأنه . . . وقد قال (ابن عباس) رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَشْخَنَ فِي الْأَرْضِ﴾ قال: ذلك إنما كان يوم بدر، والمسلمون يومئذ قليل، فلما كثروا، واشتد سلطانهم أنزل الله في الأسارى: ﴿فَمَا مَنَّا بَعْدَ وَإِنَّا فِدَاءٌ﴾ فجعل الله النبي والمؤمنين في أمر الأسرى بالخيار: إن شأؤوا قتلوهم، وإن شأؤوا استعبدوهم، وإن شأؤوا فادوهم (أي أطلقوا سراحهم مقابل الفداء). وقد أشارت الآية الكريمة إلى أن هذا الأمر لما كان عن اجتهاد ومشاركة من الرسول ﷺ لأصحابه وأن الله عز وجل سبقت حكمته الأزلية ألا يؤاخذ المؤمنين على ما وقع منهم خطأً بطريق الاجتهاد، لذلك أعقبها تعالى بقوله:

﴿لَوْلَا كَتَبْنَا مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١).

العتاب في الإذن للمنافقين:

أما الآية الكريمة الثانية وهي قوله تعالى:

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَّبِعَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعَلَّمَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٢).

فهذه الآية الكريمة ليس فيها ما يدل على وقوع الذنب منه عليه الصلاة والسلام، وغاية ما في الأمر أن الله عز وجل عاتبه لكونه أذن لبعض المنافقين في ترك الخروج للجهاد، لما اعتذروا إليه من عدم الاستطاعة، فنزل العتاب من الله عز وجل له .

قال سفيان بن عيينة: انظروا إلى هذا اللطف، بدأ بالعفو قبل أن يعيره بالذنب.

(١) سورة الأنفال: الآية (٦٨).

(٢) سورة التوبة: الآية (٤٣).

وقال عمرو بن ميمون: اثنان فعلهما رسول الله ﷺ لم يؤمر بهما، إذنه للمنافقين، وأخذه الفدية من أسارى بدر، فعاتبه الله كما تسمعون.

ويرى بعض المفسرين أن الآية الكريمة لا تشير حتى للعتاب فضلاً عن وقوع الذنب، وذلك أن الله عز وجل وقَّره، ورفع منزلته بافتتاح الكلام بالدعاء له كما يقول الرجل لمن يخاطبه إذا كان كريماً عنده: عفا الله عنك ما صنعت في حاجتي؟ ورضي الله عنك ألا زُرْتِي؟ وهذا ما ذهب إليه الإمام الرازي والبغوي وغيرهما.

وقد أساء (الزمخشري) الأدب في تفسيره عند قول الله تعالى لنبيه: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم...؟﴾ الآية، حيث قال ما نصه:

(﴿عفا الله عنك﴾ كناية عن الجناية لأن العفو رادف لها معناه: أخطأت وبئس ما فعلت و﴿لم أذنت لهم﴾؟ بيان لما كنى عنه بالعفو ومعناه: مالك أذنت لهم في القعود عن الغزو حين استأذنوك واعتلوا لك بعلمهم، وهلا استأنيت بالإذن ﴿حتى يتبين لك﴾ من صدق في عذره ممن كذب فيه).

وقد ذكر صاحب (تفسير المنار) كلاماً لطيفاً في منتهى الإبداع والإيقان نقل طرفاً منه حيث قال رحمه الله:

(هذا وإن بعض المفسرين - ولا سيما الزمخشري - قد أساءوا الأدب في التعبير عن عفو الله تعالى عن رسوله ﷺ في هذه الآية، وكان يجب أن يتعلموا منها أعلى الأدب معه صلوات الله وسلامه عليه، إذ أخبره ربه ومؤدبه بالعفو قبل الذنب، وهو منتهى التكريم واللطف، وبالغ آخرون كالرازي في الطرف الآخر، فأرادوا أن يشتموا أن العفو لا يدل على الذنب، وغايته أن الإذن الذي عاتبه الله عليه هو خلاف الأولى... ثم قال: والذنب في اللغة ليس مرادفاً للمعصية وإنما هو كل عمل يستتبع ضرراً، أو فوت مصلحة أو منفعة، مأخوذ من ذنب الدابة، وإذن المعفو عنه قد استتبع فوت المصلحة المنصوصة في الآية وهي تبين الصادقين، والعلم بالكاذبين).

وقد كان الإذن المعاتب عليه اجتهاداً منه ﷺ فيما لا نص فيه من الوحي، وهو جائز وواقع من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وليسوا بمعصومين من الخطأ فيه، وإنما العصمة المتفق عليها خاصة بتليخ الوحي ببيانه والعمل به، فيستحيل على الرسول أن يكذب أو يخطيء فيما يبلغه عن ربه، أو يخالفه بالعمل، وقد صرح علماء الأصول بجواز الخطأ في الاجتهاد على الأنبياء عليهم السلام، وقالوا: ولكن لا يقرهم الله على ذلك، بل يبين لهم الصواب فيه، وغاية ما فيه هنا أنه مخالف لما يقتضيه الحزم، وكان من لطف الرب اللطيف الخبير، برسوله البشير النذير، أن أخبره بالعفو عنه، قبل بيانه له... (١).

النص الثالث: وهو قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢)﴾.

فقد تمسك بظاهر هذه الآية من زعم أن المعصية تقع من الأنبياء، وأن العصمة غير واجبة لهم، وهذا خطأ في الفهم، وعدم إدراك للمعنى الصحيح ومن سبب نزول الآية يتضح أن الرسول ﷺ لم يرتكب معصية وإنما خالف الأولى فنبهه الله تعالى إلى الأكمل والأفضل.

روى ابن جرير: (عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه قال: بينا رسول الله ﷺ يناجي عتبة بن ربيعة، وأبا جهل بن هشام، والعباس بن عبد المطلب، وكان يتصدى لهم كثيراً، ويحرص عليهم أن يؤمنوا، فأقبل إليه رجل أعمى يقال له: «عبد الله بن أم مكتوم» يمشي وهو يناجيهم، فجعل عبد الله يستقرئ النبي ﷺ آية من القرآن، وقال: يا رسول الله علمني مما علمك الله، فأعرض عنه رسول الله، وعبس في وجهه وتولى، وكره كلامه، وأقبل على الآخرين فأنزل الله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى...﴾ الآيات، فلما نزل فيه ما نزل كرمه رسول الله وكلمه وقال له: ما حاجتك؟ هل تريد من شيء؟ وإذا ذهب من عنده

(١) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ٥٤١/١٠.

قال: هل لك حاجة في شيء؟ قال ابن جرير: والتعرض بذكر عماء، لزيادة الإنكار كأنه قيل توَلَّى لكونه أعمى، وكان يجب أن يزيدته تعطفاً وترؤفاً، وتقريباً وترحيباً^(١).

فأنت ترى من سبب النزول أن الرسول ﷺ كان مشغولاً مع رؤساء قريش، وكان يحرضُ على دعوتهم، لأنهم إذا أسلموا أسلم بإسلامهم الناس، وقد جاءه هذا الأعمى في وقت كان ﷺ مشغولاً فيه فترك إجابته لما هو - في نظره - أهم وأعظم، فعاتبه الله على هذا وبين له ما هو الأفضل والأحسن.

قال الرازي: (القائلون بصدور الذنب عن الأنبياء تمسكوا بهذه الآية وقالوا: لَمَّا عاتبه الله في ذلك الفعل دلَّ على أن ذلك الفعل كان معصية، وهذا بعيد، فإننا قد بينا أن ذلك كان هو الواجب المتعين، إلا بحسب هذا الاعتبار الواحد وهو أنه يوهم تقديم الأغنياء على الفقراء، وذلك غير لائق بصلافة الرسول، وإذا كان كذلك كان ذلك جارياً مجرى ترك الاحتياط وترك الأفضل فلم يكن ذلك ذنباً البتة^(٢)).

وأجاب ابن حزم بقوله: وأما قوله: ﴿عسى وتولى...﴾ الآيات، فإنه كان عليه السلام قد جلس إليه بعض عظماء قريش، ورجا إسلامهم، وعلم أنه لو أسلم لأسلم بإسلامه ناس كثيرون وأظهر الدين، وعلم أن هذا الأعمى الذي يسأله عن أشياء من أمور الدين لا يفوته وهو حاضر معه، فاشتغل عنه - عليه السلام - بما خاف فوته من عظيم الخير، مما لا يخاف فوته، وهذا غاية في النظر في الدين والاجتهاد في نصرة القرآن في ظاهر الأمر، ونهاية التقرب إلى الله، الذي لو فعله اليوم من فاعل لأجر، فعاتبه الله تعالى إذ كان الأولى عند الله أن يُقبل على ذلك الأعمى الفاضل البرّ التقي، ويترك أولئك المعاندين).

(١) انظر: جامع البيان للطبري ٥١/٣٠.

(٢) انظر: التفسير الكبير للرازي ٥٥/٣١.

النص الرابع : وهو قوله تعالى :

﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ... ﴾ (١)

فهذه الآيات الكريمة يدل ظاهرها على أن الرسول ﷺ قارب مسابرة المشركين والركون إليهم، وهذا ذنب عظيم وخاصة في أمر تبليغ الوحي، وهذا الأمر غير وارد أصلاً، فقد روي في سبب نزول هذه الآية أن قبيلة (ثقيف) وكانت تسكن الطائف قالوا للنبي ﷺ: لا ندخل في دينك حتى تعطينا خصلاً نفتخر بها على العرب، فلا يكون علينا زكاة ولا جهاد ولا صلاة، وأن كل ربا علينا فهو موضوع وكل ربا لنا فهو محفوظ لنا، فإن قالت العرب: لم فعلت ذلك؟ فقل: إن الله أمرني... وطمع القوم أن يعطيهم الرسول ما طلبوا فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ...﴾ الآية، فأنت ترى أن الرسول ﷺ لم يُجبهم وإنما عرضوا عليه عروضاً وطمعوا في أن يوافقهم الرسول على ذلك، وحاشاه ﷺ عن أن يستجيب لدعوتهم الباطلة، وأن يسايرهم على أهوائهم الفاسدة.

قال (ابن كثير) رحمه الله: (يخبر الله تعالى عن تأييده لرسوله وتثبيتته، وعصمته وسلامته من شر الأشرار وكيد الفجار، وأنه تعالى هو المتولي أمره ونصره، وأنه لا يكله إلى أحد من خلقه، بل هو وليه وحافظه وناصره ومؤيده، ومُظهر دينه على من عاداه وخالفه في مشارق الأرض ومغاربها).

النص الخامس : وهو قوله تعالى :

﴿ يَتَّبِعُهَا النَّبِيُّ أَوْ أَتَى اللَّهَ وَلَا تَطِيعُ الْكُفْرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَأَتَّبِعَ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ (٢)

(١) سورة الإسراء: الآيتان (٧٣ - ٧٤).

(٢) سورة الأحزاب: الآيتان (١ - ٢).

فإن هذا النص الكريم ليس فيه ما يدل على وقوع الذنب من الرسول ﷺ وإنما هو خطاب للأمة توجّه إلى القائد والزعيم في صورة الخطاب له ﷺ والمراد به أمته كما يقول الملك لقائد جيشه: لا تتسامح مع العدو، وقاتلهم حتى يخضعوا لحكمك وينقادوا لأمرك، ولا تقتل طفلاً ولا امرأة ولا شيخاً كبيراً، ولا تظهر أمام عدوك الخوف والفرع. . إلى آخر ما يأمر به فهو يخاطب القائد والمراد به الجند، وينبّه الزعيم والمراد به الأمة. والدليل أن المقصود بالخطاب هو الأمة لا شخص الرسول أن الله تعالى ختم الآيات الكريمة بصيغة الجمع: ﴿إِن كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبيراً﴾ ولم يقل: بما تعمل، فهو مثل قوله تعالى:

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ (١) الآية.

فهي خطاب للأمة في شخص الرسول ﷺ وإذا حملنا الخطاب على الرسول ﷺ فليس فيه ما يدل على أن الرسول هم بطاعة الكافرين والمنافقين، أو فعل معصية حتى أمره الله تعالى بالتقوى، وإنما غاية ما في الأمر أن الله تعالى حذّره من مكر الكافرين، وخداع المنافقين، وأطلعه على خبيثه نفوسهم ليكون الرسول منهم على حذر، ولئلا ينخدع بمعسول كلامهم، وقد روي أن أبا سفيان، وعكرمة بن أبي جهل، وأبا الأعور السلمي قدموا على النبي ﷺ في المواعدة التي كانت بينه وبينهم، فقالوا للنبي ﷺ: ارفض ذكر آلهتنا، وقل إنها تشفع وتنفع، وندعك وربك فشق ذلك على النبي وعلى المؤمنين، وهم عمر - وكان حاضراً - بقتلهم فنزلت الآية (٢).

وروي أن أهل مكة دعوا النبي ﷺ أن يرجع عن قوله على أن يعطوه شطراً من أموالهم، وخوفه المنافقون واليهود بالمدينة فأنزل الله ﴿بِأَيِّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ...﴾ الآية.

(١) سورة الطلاق: الآية (١).

(٢) ذكره في اللباب، وانظر: إرشاد العقل السليم تفسيرا أبي السعود ٨٩/٧.

النص السادس : وهو قوله تعالى :

﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ (١).

فهذه الآية الكريمة ليس فيها ما يدل على شك الرسول ﷺ في الوحي الذي نزل عليه، وإنما هو من باب (الفرض والتقدير) كما هو عادة العرب في تقدير الشك لبينى عليه ما ينفي احتمال وقوعه كما تقول لابنك (إن كنت ابني فلا تكن بخيلاً) ومعنى الآية على هذا التقدير: إن وقع منك يا محمد شك – فرضاً وتقديراً – فيما قصصنا عليك من أخبار الأنبياء السابقين كنوح وإبراهيم فاسأل علماء أهل الكتاب الذين يقرءون الكتاب من قبلك، فإنهم على علمٍ من ذلك، فالغرض وصف الأخبار بالعلم، لا وصف النبي ﷺ بالشك والريب، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لا والله ما شك رسول الله طرفة عين، ولا سأل أحداً منهم» وروي أنه لما نزلت هذه الآية قال الرسول الكريم: «لا أشك ولا أسأل» (٢).

جاء في محاسن التأويل ما نصّه :

«لا يفهم من هذه الآية ثبوت شكٍ له صلوات الله عليه، فإن صدق الشرطية لا يقتضي وقوعها كقولك: إن كانت الخمسة زوجاً كانت منقسمة بمتساويين.. . والسرّ في مثلها تكثير الدلائل وتقويتها لتزداد قوة اليقين، وطمأنينة القلب، وسكون الصدر، أو السرّ هو الاستدلال على تحقيق ما قصّ، والاستشهاد بما في الكتاب المتقدم، وأن القرآن مصدق لما فيها، أو وصف الأخبار بالرسوخ في العلم بصحة ما أنزل إلى رسول الله صلوات الله عليه تعريضاً بالمشركين.. . وقيل: الخطاب له ﷺ والمراد غيره على حدّ قولهم: (إياك أعني واسمعي يا جارة) والمعنى إن كنت

(١) سورة يونس: الآية (٩٤).

(٢) جامع البيان للطبري ١١/١٦٨.

أيها السامع في شك مما نزلنا على لسان نبينا إليك . . . ويؤيده: ﴿قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني . . .﴾^(١).

النص السابع: قوله تعالى:

﴿وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبغى نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيتهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين﴾^(٢).

فهذه الآية ليس فيها ما يدل على أن الرسول ﷺ اقترف ذنباً حتى عاتبه الله تعالى بهذا العتاب، وإنما غاية ما في الأمر أن الله تعالى أراد أن يخفف عن رسوله عناء تكذيب المشركين له، وأن يطلعه على حقيقة نفوسهم، فلو جاءهم محمد رسول الله بكل آية لم يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، قال (ابن عباس) رضي الله عنهما: (إن رسول الله ﷺ كان يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى، فأخبره الله أنه لا يؤمن لدعائك إلا من قد سبق له من الله السعادة في الذكر الأول)^(٣) ولهذا قال الله تعالى عقب هذه الآية:

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ . . .﴾^(٤).

والمراد بالموتى: الكفار الذين لا يؤمنون ولا يستجيبون لدعوة الحق.

ففي هذه الآية ما لا يخفى من الدلالة على المبالغة في حرصه ﷺ على إسلام قومه، بحيث لو قدر أن يأتيهم بآية من تحت الأرض، أو من فوق السماء لأتى بها رجاء إيمانهم وشفقة عليهم صلوات الله وسلامه عليه وصدق الله حيث يقول:

(١) محاسن التأويل للقسامي ٣٣٩٦/٩.

(٢) سورة الأنعام: الآية (٣٥).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير ١٤١/٢.

(٤) سورة الأنعام: الآية (٣٦).

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (١).

النص الثامن: قوله تعالى:

﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٢).

ففي هذه الآية تحذير له ﷺ من إجابة كفار قريش في طرد المؤمنين المستضعفين، وليس فيها ما يدل على أنه طردهم فعلاً، وإنما هو عرض عرضه المشركون على رسول الله فجاء التنبيه من الله والتحذير من فعله، روى ابن جرير عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: مرّ الملاء من قريش برسول الله ﷺ وعنده صهيب، وبلال، وعمار، وخبّاب وغيرهم من ضعفاء المسلمين فقالوا: يا محمد، أرضيت بهؤلاء من قومك؟ أهؤلاء الذين من الله عليهم من بيننا؟ نحن نصير تبعاً لهؤلاء؟ اطردهم فلعلك إن طردتهم نتبعك فنزلت هذه الآية:

﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ (٣).

إذا علمت ذلك تبين لك أن الرسول ﷺ لم يطرد هؤلاء الضعفاء، وإنما هم بإبعادهم عن مجلسه حين قدوم أولئك المشركين، ليتألف قلوبهم فيقودهم ذلك إلى الإيمان، فنهاه الله تعالى عن تنفيذ ذلك لهم وأمره أن يجعل هؤلاء الفقراء المستضعفين جلساء وأخصاء كما قال تعالى في سورة الكهف:

﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ

(١) سورة التوبة: الآية (١٢٨).

(٢) سورة الأنعام: الآية (٥٢).

(٣) انظر: محاسن التأويل للقاسمي صفحة ٢٣٢٣.

عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا نُطِيعُ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ وَكَانَ
أَمْرَهُ فُرْقَانًا ﴿١﴾ .

النص التاسع: قوله تعالى:

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ . . . ﴿٢﴾ الآية .

قال الحافظ ابن كثير: المراد بقوله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ هو صلح
الحديبية، فإنه حصل بسببه خير جزيل، وأمن الناس، واجتمع بعضهم ببعض
وتكلم المؤمن مع الكافر، وانتشر العلم النافع والإيمان).

وقال (ابن القيم): (كان صلح الحديبية مقدمة وتوطئة بين يدي هذا الفتح
العظيم، أمن الناس به، وكلم بعضهم بعضاً، وناظره في الإسلام، وتمكن من
اختفى من المسلمين بمكة من إظهار دينه والدعوة إليه، والمناظرة عليه، ودخل
بسببه بشر كثير في الإسلام، ولهذا سماه الله فتحاً) (٣).

وأما الذنب المذكور في الآية فالمراد منه ترك الأفضل والأولى قال أبو السعود:
قوله تعالى: ﴿ ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ في جميع ما فرط منك من ترك
الأولى، وتسميته ذنباً بالنسبة إلى منصبه الجليل ﷺ. وجاء في التفسير الواضح:
والمراد بما تقدم من الذنب وما تأخر هو ما فرط من النبي ﷺ – وهو المعصوم عن
معصية ربه – من خلاف الأولى بالنسبة لمقامه فهو من قبيل «حسنت الأبرار سيئات
المقربين» وقيل: المراد ما هو ذنب في نظره العالي، وإن لم يكن في الواقع
كذلك، ولعل الإضافة في قوله (ذنبك) تشير إلى هذا المعنى (٤).

(١) سورة الكهف: الآية (٢٨).

(٢) سورة الفتح: الآيتان (١-٢).

(٣) انظر: زاد المعاد لابن القيم في الكلام على غزوة الحديبية.

(٤) انظر: التفسير الواضح للحجازي ٣٩/٢٦.

النص العاشر: قوله تعالى:

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتُخْفِي النَّاسُ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ...﴾ (١) الآية .

وهنا يحلو لبعض ضعفاء الإيمان الذين في قلوبهم مرض أن يثيروا بعض الشبهات حول زواج النبي ﷺ بزَيْنَبِ رضي الله عنها التي كانت عند مولاه ومبتناه (زيد بن حارثة) وأن يقيموا زوبعة من الزوابع السهوج حول (عصمته) ﷺ، فقد زعموا أن محمداً رأى زينب فأحبها ثم كتم هذا الحب، ثم بعد ذلك أظهره، ورغب في زينب فطلقها زوجها زيد وتزوجها رسول الله، وزعموا أن العتاب في الآية كان لكتمان حب الرسول لزينب.

وافتروا بعض الفرى الأثيمة فزعموا أن النبي ﷺ مرَّ ببيت زيد وهو غائب فرأى زينب فوق منها في قلبه شيء فقال: سبحان مقلب القلوب! فسمعت زينب التسيحة فنقلتها إلى زيد فوق في قلبه أن يطلقها حتى يتزوج بها الرسول. إلى غير ما هنالك من المزاعم الباطلة التي تلقفها (المستشرقون) ومن على شاكلتهم من المسلمين المزيفين، وخبوا فيها ووضعوا، وأباحوا لأنفسهم الخوض في الأعراض، والتكلم في حق النبي الكريم، وتصويره بصورة يترفع عنها كثير من الناس، وكان سندهم في ذلك بعض الروايات الإسرائيلية التي دُست في كتب التفسير، وهي روايات باطلة لم يصحَّ فيها شيء كما قال (أبو بكر بن العربي) رحمه الله.

وتفصيل الموضوع كما رواه ابن أبي حاتم من طريق السُّدي، قال: (بلغنا أن هذه الآية نزلت في زينب بنت جحش، وكانت أمها «أميمة بنت عبد المطلب» عمه رسول الله، وكان رسول الله قد أراد أن يزوجه «زيد بن حارثة» مولاه فكرهت ذلك، ثم إنها رضيت بما صنع رسول الله فزوجها إياه، ثم أعلم الله عز وجل نبيّه ﷺ بعد

(١) سورة الأحزاب: الآية (٣٧).

أنها من أزواجه، فكان يستحي أن يأمره بطلاقها، وكان لا يزال بين زيد وزينب ما يكون بين الناس، فأمره رسول الله ﷺ أن يمسك عليه زوجته، وأن يتقي الله، وكان يخشى أن يعيبوا عليه ويقولوا تزوج امرأة ابنه^(١)، وفي هذه الحادثة نزل قوله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ (٣٦) .^(٢)

وروي عن (علي بن الحسين) أنه قال: أعلم الله نبيّه ﷺ أن زينب ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها، فلما أتاه زيد يشكوها إليه وقال له: اتق الله وأمسك عليك زوجك، عاتبه الله وقال له: أخبرتك أنني مزوجكها وتخفي في نفسك ما الله مبديه^(٣).

فالذي أخفاه رسول الله ﷺ ليس هو (الحب) كما زعم المفترون، وإنما أخفى ما أوحى الله إليه من أمر (الزواج) بها لحكمة عظيمة وهي إبطال (حكم التبني) وقد خشي الرسول من كلام المنافقين أن يقولوا: إن محمداً تزوج بامرأة ابنه من التبني حيث كان (زيد) رضي الله عنه يدعى (زيد بن محمد).

يقول الشيخ الحجازي في التفسير الواضح :

«ومن المؤسف أن يندس في كتب التفسير أقوال تنسب إلى أكابر العلماء والله يعلم أنهم منها براء، أوهي في الواقع سموم إسرائيلية، وضعها من أسلم من اليهود عن حسن قصد أو سوء نية، ومنها ما قيل في تفسير هذه الآيات من نسبة أمور لا تليق بأي رجل عادي، فضلاً عن أشرف الخلق المشهود له من كافة الناس أنه رجل صادق ذو خلق حميد.

(١) انظر: جامع البيان للطبري ١٣/٢٢؛ ومختصر تفسير ابن كثير ٩٨/٣.

(٢) سورة الأحزاب: الآية (٣٦).

(٣) انظر: مختصر تفسير ابن كثير ٩٨/٣.

ونظرة بسيطة إلى تاريخ (زينب) وظروفها في زواج (زيد) تجعلنا نؤمن بأن سوء العشرة التي كانت بين زينب وزيد إنما هو من اختلافهما اختلافاً بيّناً في الحالة الاجتماعية، فزينب شريفة، وزيد كان بالأمس عبداً، وقد أراد الله امتحانها بزواج زيد لتحطيم مبدأ العصية القبلية، والشرف الجاهلي، وجعل الشرف في (الإسلام والتقوى) فخضعت زينب مكرهة، وأسلمت لزيد جسدها دون روحها فكان الألم والضيق.

والنبي عليه السلام كان يعرف زينب من الصغر لأنها ابنة عمته فمن كان يمنعها منه؟ وكيف يقدم إنسان امرأة لشخص وهي (بكر) حتى إذا تزوجها وصارت (ثيباً) رغب فيها؟! .

لا يا قوم: تعقلوا ما تقولون، وتفهموا الحق لوجه الحق، تدركوه بلا تلبس ولا تشويش، وانظر إليهم وهم يقولون: إن الذي أخفاه محمد هو حبه لزينب ولهذا عوتب وهل يعاتب الشخص لأنه لم يجاهر بحبه لامرأة جاره؟! .

ولكن الحق هو أن هذا الزواج كان امتحاناً في أوله لزينب وأخيها حيث أكرها على قبول زيد، وفي النهاية كان امتحاناً قاسياً للنبي ﷺ حيث يؤمر به ويعلم نهايته، وزينب تحت مولاه زيد، والحكمة كما نطق القرآن هو تحطيم مبدأ كان معمولاً به ومشهوراً عند العرب هو (تحريم زواج امرأة الابن من التبني) كتحریمها إذا كان الابن من النسب: ﴿لَكَيْلًا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا...﴾ .

فالذي كان يكتمه النبي ﷺ في نفسه تأذيه من هذا الزواج، وتراخيه في إنفاذ أمر الله به، وخوفه من لفظ الناس وبخاصة المنافقين عندما يجدون نظام التبني قد انهار بعدما ألفوه، ولهذا فقط عوتب عليه الصلاة والسلام^(١).

(١) التفسير الواضح للحجازي ١٢/٢٢.

أقول: إن الآية صريحة في هذا الشأن، فقد ذكرت الآية أن الله سيُظهر ما أخفاه الرسول ﷺ وتخفي في نفسك ما الله مبديه ﴿فماذا أظهر الله تعالى؟ هل أظهر حبَّ الرسول لزينب؟ كلا، إنما الذي أظهره هو إرادة الرسول الزواج بها لأن الله قد أوحى إليه بأنها ستكون زوجته، ولهذا صرَّح الباري جل وعلا بهذا الشيء الذي أخفاه الرسول في نفسه، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾.

وهكذا تبطل مزاعم المفترين أمام الحجج الدامغة، والبراهين الساطعة التي ندل على عصمة سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم تسليماً كثيراً، والحمد لله رب العالمين.

• • •